حديث جانبي

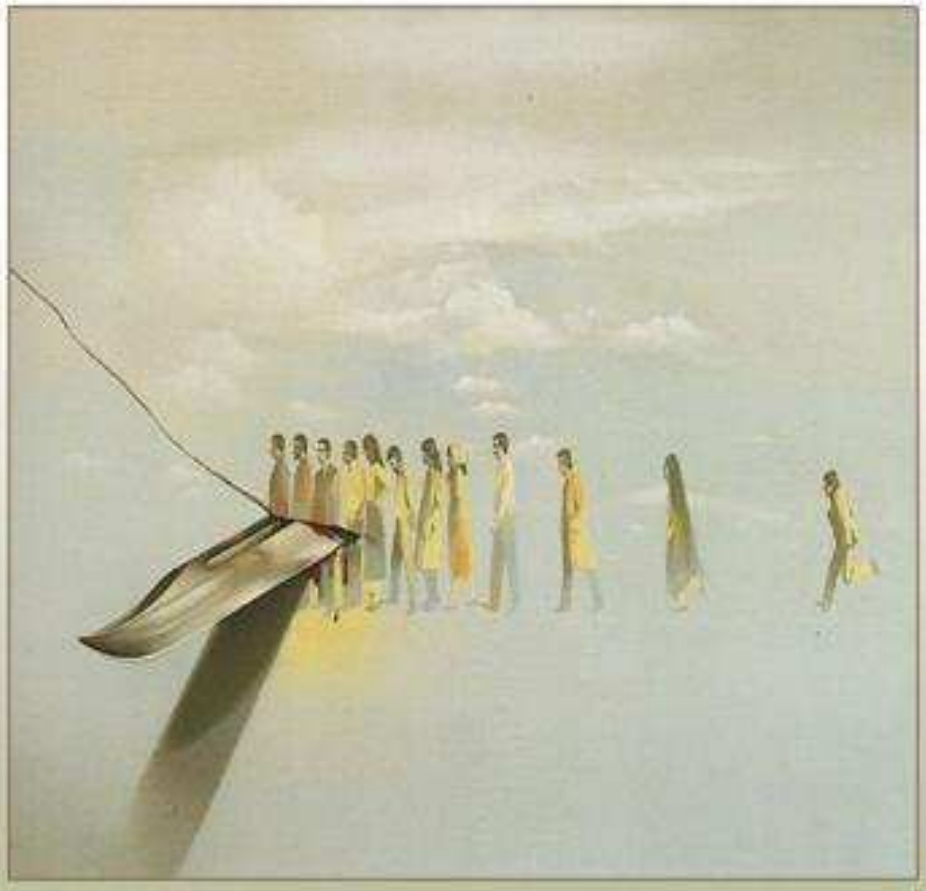

محمد العرفي

حديث جانبيّ

نصوص

محمد العَرَفي

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

٠١٢٩٢٥١٥٩٢

المدير العام : يحيى هاشم

www.oktob.net

dar_oktob@gawab.com

رقم الإيدع : ٢٠٠٨/٢٦٣٥

تصميم الغلاف : محمد العرفي

لوحة الغلاف : الفنان الإيراني مرتضى كاتوزيان

التنسيق الداخلي: خالد عبد القادر

حديثٌ جانبيّ

محمد العَرَفي

حديثٌ جانبيّ

نصوص

محمد العَرَفي

الطبعة الأولى

٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء:

إلى من يتوسد الرصيف هناك..

تغطيه السماء ونظراتنا

قد لهى الشيب في لحيته ورأسه

وما زال يمد يده !!

م. العرفي

" لعمرُكَ ما ضاقَت بِلادٌ بِأهلِها ولكن أحلام الرِجالِ تَضيقُ "

ابن الرومي

حديث جانبي

ميثاق الوطن

عندما نستبدل
سقف لعين بسماء
وجحر بأرض
وجدار بمئذنة
وشعب تحت التراب
فقل لي بربك....
ماذا تبقى منك يا وطن..؟

أحاول كل صباح أن أقنع نفسي بأني لا زلت على قوائم الحياة
أو سطرا في أرشيف المهملات
لكن يأتي دخان القهوة ليخبرني أنى لا شيء
-صفر في هذه المنظومة-
أتبخر شيئا في شيء حتى أصبح سحابة أمان تظلل صاحب السعادة.

صحيح أنني أشغل مساحات كبيرة من خطبه الرنانة ، وأحمل ورقة تثبت
شخصيتي المنعدمة، وورقة أخرى بيوم جئت لهذا الوطن
وصك غفران بأن الفقراء لهم الجنة!
لكنى لا أحمل صدرا يحلف بسمائها وترابها في كل عيد وطني من أعيادنا التي
تجاوزت المئة !

لا أحمل سوى قلب ساخط ولسان ناقم ومعدة خاوية وصل صوتها حدود الصراخ..

أحمل فوق رأسي خبزا لا لآكله ولكن كي أتعذب به مرتين .
مرة بحملة ومرات أخرى برؤية أنيابهم تنهش في رأسي..
ثم يزج بي إلى السجن بتهمة الأكل العمد من حقوق الوطن ونهب خيراته.

يالك من وطن شريف تغطيه الأوسمة!
لم تقطع يد من سرقوك بقدر ما قصمت ظهري وأنا أحملك منهوبا
الجميع هنا أدركوا سر شحوبي...وأنا أيضا أدرك أسباب شحوبهم!

لله درك يا عمر ..
نفخت تحت القدر وأطعمت الصغار..واليوم ينفخون في وجوهنا ويأكلون الصغار!
ما ذلت أذكر العدل العمري في رقع ثيابنا..بينما يلهو الفقر في ملامحنا قبل نعالنا.

مازلت أذكره يوم ربط على بطنه حجر من شدة الجوع..
واليوم أيها المواطن دعنا نرجمك و نمص دمك بهدوء..
كن لقمة سائغة وسنقص شجاعتك في اقتحام أفواهنا لأولادنا بينما يمصون دماء أولادك وأحفادك.

كَرْمُنا لا تطل منه العناقيد بقدر ما تطل كئوس الخمر وأفواه بعرض الظلم
وتحت الكَرْمِ أناس أبَوْا أن يركعوا
ولكنهم وضعوا أيديهم على ركبهم وهم يلتقطون أنفاسهم!

أعواد نحيلة ووجوه بلون القمح على أكتافها حملت هذا الوطن إلى بر الأمان..
ومنه حمله الجند إلى قصر السلطان!
وسمراوات تفلتن من حكايا الليل البهيم
قد ذابت نون النسوة واستحالت عرقا على جباههم وهم يعملون في الحقل .
نساء لا يصلحن كمتحضرات أو مستحضرات تجميل
فهن في الحقل شقائق الرجال.

مظلوم أنت يا وطني..
لم تعطني الفرصة كي أحبك..
ما ركضت على عشبك، فقط كنت أركض كي أهرب من ظلمهم!
ما قطعت نياط قلبي من اشتياقك ، ولكن قطعت أنفاسي وأنا أهرب بعيدا عنك.
عذرا إن قلت لك ...أنت ومن جاورك من أبغض بلاد الله إلى قلبي!

آه يا وطن..
أعطني فرصة واحدة في جرائد العمل المتراكمة في زاوية حجرتي حتى أحبك.
أعطني بيتا أو قبرا ألملم فيه ما بقى مني..سيان عندي البيت والقبر يا وطن.
أعطني مزيدا من الكرامة تكفى لطوابير الخبز وبقية طوابيرك.
لو أعلم أنك منظم لهذا الحد ما جئتك يا وطن!
امنحني بدل فاقد لسنين قضيتها في الغربة
وبدل فاقد لكرامة مبعثرة وأخواتها.

آه يا وطن...
كنت أحسبك ملائكي الوجه حتى خرج علينا شيطانك
كنت أحسبك كالشمس إذا علا الدخان حتى اختنقت من عشاقك.

آه يا وطن...
كيف تغنوا لك وحلفوا بسمائك وترابك..؟
كم وددت أن أهجوك في وجهك يا وطن.
ولكني ما عدت أتقن غير الأحاديث الجانبية!

وحدي أمر على مقابر حناجركم
أبث فيها بعض من ثرثرتي
أحاول أن أعزف بأوتارها شيئا من شجاعة
ولا شيء سوى أنكم صامتون أكثر مما يستدعي الصمت..
ملت القبور قاطنيها وتشققت الجدران ممن يسيرون فيها..
فالقاعدة تقتضي السير بجوارها لا بداخلها يا خوف!

يصر صديقي وكل من أعرفهم أن هناك "ما وراء الشمس"
هناك حيث مملكة العصاة ومن طالت ألسنتهم والتفت حول عنق الظلم.

ما وراء الشمس...
حتى صرنا نخاف دفئها..ونعتبره نذير شؤم..
فما أسوأ أن تقضي العمر تخاف من ظلك فتهرب منه ببلاهة!
وما أسوأ أن يصبح التجشؤ هوايتك المفضلة في زمن لقمة العيش.

تمتلك حنجرة قد تخطت اليوبيل الذهبي للصمت،
بل أصبح صفة تقترن باسمك وسمتك(الصمت العربي)
وقفص صدري..ما زالت أنفاسك حبيسة أضلاعه المتكسرة
ولسان يعلوه الصدأ يقبع هناك ويلتصق في سقف حلقك كلما حاولت النطق.

حتى في لحظات الكرامة تقف على أطراف شجاعتك وتتمطى كي تناطح الظلم
فيضع الخوف سبابته في مقدمة جبهتك .. أن اجلس يا هذا فلست سوى وحدك
في طريق العتمة

ولست سوى وهج سينطفئ قبل أن يصبح سراجا..
وما أكثر من ينطفئ قبل أن يكمل دائرة الضوء!

لا تنمو الزهور في بلادنا لأنها حبيسة الأواني..
ومن تتمرد فهناك دائما من يقطفها قبل أن تعطر النور!
وكلما نبت لنا نجم ودليل أعياه رجم الشياطين أو وارته الغيوم.
وغيومنا ليست سوى جدران لا يقترب فيها جلادك إلا لينتزع منك اعترافا..
ولا يبتعد إلا ليزيدك عذابا..ويلهب أضلعك بسوطه وصوته.

النور ألم من تعودت عيناه الظلام..
والقيد في أنفسنا لا أيدينا
والظلم ركب أظهرنا وامتطى ما تبقى من شجاعة
وكما تموت القوة فوق شفاة العجز..يموت الصمت في الصدور!

أكثر من نصف قرن وعروبتنا نبت لها قرنان وذيل!
وتدهور بها الحال فأصبحت تمشي على أربع
والمطية من حق الجميع..
يركب من يركب وينزل من ينزل
وهي لا تزيد غير تحريك ذيلها خلف مؤخرتها وبعض النهيق.

أما القرد فقد حذف اسمه من سجلات القرود..
وصار طغيانا يعلمنا الصمود وفنون الصبر!
صار خوفا يتجول في أروقة صمتنا
فابقوا صامتين
وقلدوا نوم العازبين
وعجين الفلاحين

فماذا ستجنون؟
غير ضرب الأقفية
وبعض الملاليم

وضعت العبارات وجفت الحلوق!

بين(قوسيـ)الحزن، فاصلة الغباء

سندخل التاريخ من أحقر أبوابه
لا لأنا حزنا المجد..
ولكن لأنا كلما تمخضنا
أنجبنا ذلا جديدا

ولحين تعود الرقاب من تحت النعال...تنفض عن نفسها غبار الذل
سيبقى الغباء أحد قدسيات خيبتنا.
وستبقى فلسطين والعراق أغاني السهرة..تتلوها أغاني العاهرات
ونحن ما زلنا نتفرج كالبلهاء كأننا من كوكب آخر.

ربما قد تنكرنا في زى عربي..
ونتحدث بلكنة عربية
إلا أن الثرثرة والكروش واللحى والمسابح المتدلية لا تكفى
ربما نحتاج إلى المزيد من الـ (الموضة والتبغ وهيفا وأخواتها..)
كي نموت عشقا وطربا ، بينما يموتون غير بعيد من مراقصنا جوعا وفقرا.

لكم حاولت وضع(الحزن) بين قوسين منيعين، وأن أضع الفواصل بين العروبة والغباء ولكن تأبى الكلمات إلا أن تمتزج مع بعضها في هذا الكيان.
وكلما أردت التملق للواقع وإلباسه حللا زاهية، أبدأ بسطر جديد ولكن لا يزيد القلم عن (نقطة) تكون هي بداية الكلام ونهايته في آن واحد! (.)

كالببغاء ظللت أردد مع الجموع الغفيرة
بالروح بالدم أفديكِ يا فلسطين

ثم زدنا عليها العراق
ومازال الهتاف يقول :
هل من مزيد..؟؟
أحمق أنا حينما ظننت أن الصياح سيعيد ما أخذ بالقوة
بل حمقى نحن ، عندما هربنا عند أول طلق ناري!

ثم انهال الصفير والتصفيق من المحيط إلى الخليج لمن هدد بإزالة دولتهم
لتطل علامات الاستفهام من جديد؟؟؟!
كيف استووا ظهورنا دون أن نكون قد انبطحنا لهم انبطاحا.
لنكتشف أن صلاتنا نحو قضايانا لم تكن إلا "مكاءً وتصدية "
لقد أسمعت لو ناديت حيا..ولكن لا قلوب لمن تنادي.

استبدلناها بمزيد من الألسن، وكم خطبة عصماء بكينا فيها حد النهيق!
ثم تفرقنا نضرب في الأرض بقوائمنا عساها تخرج خالدا أو عمرا من جديد...
وكلما ضربنا بقوائمنا ركبنا طاغية يتلوه طاغية ، حتى أدمنا دوران الساقية!

تؤلمني نظرته ...تشعرني بالخزي وكأنه يقول
هذا الحجر بيدي أكثر حنانا من قلوبكم ، وأشد فتكا من الترسانة النووية
ملعون زيتونكم وكرمكم ــ(ووحدتكم)ــ العربية

قوميتكم لم تنفعني..
لم حملتموني صفحات مجدكم وتركتموني وهربتم؟!

صدعتم رؤوسنا..
متى نراكم على حدودنا...؟

بين الحين والآخر..أتحسس قلبي، برغم الأسى مازال ينبض.
أمد يدي في حلقي، عساها تخرج تلك الروح المنهزمة، ولكن دون جدوى

أرفع بصري إلى السماء، أتأمل سحابة وأقول لها أمطري أنى شئتِ فلن يأتينا خراجك!
حتى لو أمطرتِ فوق رؤوسنا..فما عادت أرضنا ملك لنا
أتأمل تثاؤبنا ..الذي ما عدنا نتقنه
لو أتقناه جيدا ، ربما اقتلعتهم رياحنا الهوجاء
لو تجمعت قلوبنا، لتحول النبض إلى قرع لطبول الحرية.

ألملم أفكاري الواقعة بين دفتي خوفي وحزني
كمن يلملم الجمر بين جوانحه.. و بقية من شوك
أستعيذ بالله من عروبتنا ثلاثا...ومن عصا الحاكم سبعا وربما أكثر!
أتفل عن يميني ويساري كي لا تلبسني لحظة صدق جديدة!

عاهرة كتب التاريخ
تدفن تحت الأنقاض :الشهداء القديسين
وتبقي أسماء شهود الزور([1])

من أي باب سندخله، ومن تحت أي مائدة سينمو "صلاح" آخر؟!
أكاد أجزم وأنا في منتصف خجلي أننا أول من سيدخله من الشباك
وتكاد تتجلى الصورة تماما وأنا أرى أبواب المجد قد أقفلت جميعها بعدما سبقنا إليها من الشعوب من اصفر منها ومن اخضر.
وتقف هذه الأمة-آخر من يصل- وحيدة بعكاز تتظاهر بالمرض كي يفتح لها أحدهم!

نحوا أجنحتكم وزيكم الأبيض جانبا الآن، ومن لديه أنياب فليحكم إغلاق فمه !
أنا لا أطارد خيوط النور، فمن طاردها أنهكته، ولكني لا أتعلق بأستار الوهم.

هل من العيب أن أتصور بعد قرن من الزمان كيف ستتحدث كتب التاريخ عنا؟
كم نسخة مزورة نحتاجها كي نتجمل أمام مرآة الدهر ولو قليلا؟
هل سينتقض وضوءهم عندما يقرءون عن الفيديو كليب مثلا؟
هل سيصدقون أن النملة تصفع فيلا، وان أمة بأكملها لم تستطع أن تخرج يهوديا حشر بين أسنانها؟
وهل سيصدقون أن أبناء العشر سنوات يتبادلون الصور الإباحية، بينما يشاهد آبائهم الكبار-جدا-أفلام الكارتون طوال اليوم؟!

أسئلة محيرة حقا، ولكننا سنجد من يجيب عنها وعنا يوما ما.

---

[1] الأبيات لعبد الوهاب البياتي

حتما سيعرفون أن الغواني لا يقمن مجدا، والرقص لا يهز عروش الأعداء وأن "مخصيو الشفاة" لا تكتمل فحولتهم!

من سوء حظنا أن الرواة لا يتأففون من بقع التاريخ السوداء ، وكما تعرفون جميعا أنه لا حياء في العلم ولا في أي شيء آخر !
فقط سيستبدلون الهرم بـ..... وأبي الهول بـ"ملك جمال مصر" إلخ..!

أي كتاب سيجرؤ أن يحمل بين دفتيه هذا الهراء؟!
على الغلاف سيشطب اسم المؤلف حفاظا على كرامته
وفي المقدمة مؤخرات كثيرة
في الفصل الأول باب الراقصة الموقرة سيذكرون شعبا"كله بيرقص" وحكومة "مبتعرفش"

في الفصل المجاور شعوب كسالى تستأجر من يهش الذباب عنها
وباب قصير عن شهيدين قتل أحدهما الآخر بدس السم!
وفي النهاية صفحة سوداء لا يظهر منها شيئا

ستخرجون بخبرة غزيرة أبرزها كيف تُصفع على قفاك وتبقى مبتسما!
وكيف تسرق وتبقى شريفا، وكيف تقتل قتيلا وتبكي عليه دما!

إن كان الفساد يأتي تدريجيا، فهل يعني هذا أننا طفرة ليس لها مثيل؟
وإلى متى سنقيم على فوهة هذا المنحنى الأخلاقي التدريجي؟

أشك أن المدعو تاريخ كان منصفا لهذا الحد، لابد أن نيوتن قد أكل الكثير من التفاح الذي وقع فوق رأسه، وربما لم يكن يحب التفاح مثلا لهذا ربطه بنظرية بغيضة!

وربما لم يأت (شامبليون) إلى مدينة رشيد كي يفكك رموزا معقدة، وإنما كان جائعا ويريد أن يأكل من أسماكها المملحة!
وربما لم ينتحر هتلر، بل بكى حتى الموت لأنهم حلقوا شاربه!
وربما لم يقصد نيرون أن يحرق شيئا ولكن أراد أن يتدفأ قليلا!

الصورة ليست مشوشة لهذا الحد، فقط اضبطوا هذا الهوائي اللعين
قد يأتي اليوم الذي أحدث فيه أولادي بصيغة كنا...وبعدها كل مساوئنا
ولكني سأخفي عليهم أن والدهم المعتوه قد ذهب إلى المسجد ذات يوم وفي جيبه
(ريموت)التلفزيون!
كم يا ترى سأدفع للتاريخ كي يمحو هذه الواقعة الشنيعة؟!
وإلى حين..
ارتدوا أجنحتكم الملائكية ، وانزعوا الأنياب..
عن كتب التاريخ أيضا:
كاذبة كتب التاريخ
ما كان الإسكندر تلميذا لأرسطو
ما كان سوى جلاد
يغزو من أجل الغزو
ليشفي علته
بدماء جنود الفقراء([1])

[1] الأبيات لعبد الوهاب البياتي

أحذية الفقراء

ميثاق الفقر

أمام واحدة من تلك المحلات التي لا تستطيع أن تمر من أمامها سوى بواسطة، وجيبٍ عامر، كنت ذلك الفضولي الذي يحاول جاهدا- رغم الأضواء- فهم ما يدور خلف هذا الحاجز الزجاجي من أرقام خيالية.
للوهلة الأولى ظننت أنها مزحة من العيار الثقيل، ثم تلتها العديد من العمليات الحسابية للمقارنة بين عمر الفرد وما يجنيه مقابل سلعة واحدة من تلك المعروضات!

بالكاد راتب خمس سنوات يكفي لشراء تلك الناعمة المتكئة بدلال هناك، والتي يوحي لك سعرها أنها ليست مجرد ساعة، من المؤكد أنها أبعد بكثير من ذلك، قد تكون قنبلة نووية متنكرة، وقد تكون واحدة من تلك الساعات التي تجلب الحظ ، وقد لا تكون ساعة من الأساس فأنا لا أعلم الكثير عن هذه الاختراعات الحديثة بالإضافة أنني لم أمر على هذا المحل منذ سنوات، ولكن مالا أستطيع فهمه، كيف لهؤلاء الكسالى الذين يحيطون بي أن يدفعوا هذا المبلغ الضخم في مقابل ساعة؟

بدأ الصداع والذهول يتسرب إلى ملامح وجهي بطريقة فاضحة
لا أريد أن أثبت لأحد أنني ذلك الفلاح المتمدن القادم من قريته للتو، وما زال عقله يحتفظ بغبار الطريق!

صحيح أن هؤلاء الناس يبدو عليهم أنهم يستحمون كل يوم، وأسنانهم بيضاء كتلك التي نراها في التلفاز وكأنهم لم يأكلوا فولا قط ، ولكن ربطة العنق التي أحاول استعراضها بطريقة مسرحية أمام الجميع تشفع لي رغم ألوانها الفاقعة!

في الحقيقة لم تكن هي بغيتي بقدر ما كنت أحاول قدر الإمكان إلهائهم عن نصفي الآخر الذي ينتهي بحذاء أسطوري معمر يستطيع أن يدخل موسوعة "جينيس" بفركة كعب.

لحظات قليلة كانت كافية لينتقل مؤشر الفضول لدي إلى الجهة الأخرى من الصفر، وأنتقل أنا الآخر للجهة الأخرى من الحاجز الزجاجي بكل سهولة إلى داخل المحل أطالع الأشياء بمنتهى التكبر وكأنني أحمل وثيقة موقعة من وزير المالية تثبت حسن السير والسلوك، في هذه الأماكن لا يجب أن تصرخ كلما رأيت رقما معقدا، ولا يجب أن تجلس بجانبه تبكي سنوات عمرك القليلة، ولا يجب أيضا أن تضحك لأن هؤلاء الحمقى يشترون ويدفعون ويضحكون.
أصفار كثيرة بجانبها أرقام نسيت منذ العهد الدراسي كيف تنطق، عندما تزداد الأصفار المتعلقة بالنقود عن ثلاثة أبدأ بالتلعثم كأي تلميذ في حضرة أستاذ رياضيات ماكر!

لا أدري لم تذكرت هذا الأستاذ الذي لا يحلو له مراجعة جدول الضرب سوى بطريقة عكسية مفاجئة، كأن يسألك عن حاصل ضرب تسعة في سبعة وليس سبعة في تسعة، أين هو الآن كي يرينا مهارته؟

بالكاد نطقت هذا الرقم المكون من خمسة أرقام متسائلا باستنكار هل هو صحيح، حتى أخبرني صاحب المحل بخبث شديد أنها "ماركة". لم يكن علي سوى أن أطبق فمي الذي تحول فجأة من اتساع الذهول إلى ابتسامة يبدو عليها بعض الرضا.

ذكرني نطقه لكلمة ماركة بربطة عنقي فاقعة اللون، هي زاهية فقط ولكن قد لا يكون لها قيمة فعلية، لا أدري لم يهتم الناس بالمظاهر بتلك الطريقة المقرفة التي لا تدل سوى على خوائهم الداخلي، عادة حينما أريد أن أشتري أنتقى أكثر أصدقائي برودا كي يصاحبني، أتحمل أنا ثقل دمه خلال الطريق ويتحملون هم

مالا يطيقون من المجادلة والضحكات أحادية الطرف، ربما تكون هذه الفائدة الوحيدة من أن يكون لك صديق بهذه المواصفات القياسية للتعامل مع السوق.

لا أعاني كثيرا من حب التملك، كما أعاني من حب الترك، لا أستطيع أن أضيف إلى قائمة الإهتمامات شيئا آخر أخشى فقده، وأتحمل تبعات خسارته، ولهذا ليس لدي سوى تلك الأشياء التي أستطيع الحفاظ عليها - في العادة نحن نحافظ على الأشياء التي نخشى أن نفقدها، وليست تلك الأشياء التي تقبل التعويض ونستطيع أن نراهن عليها بكل أريحية-.

خرجت من المحل بقدرات عالية في الجمع والضرب والطرح، كأن تجمع عدة أعداد فلا يعجبك قيمتها فتضربها، وتطرحها أرضاً خلف ظهرك ولا تشغل بالك بها.

في المحل المجاور لم أستغرب كثيرا عندما رأيت هذا الرجل يجر ابنه خارجا ويسب نفسه عدة مرات، الولد لم يكن غاضبا قط من أن يقول له والده يا ابن الـ.، لأنه ترك قلبه أمام عتبات هذه الكرة ناصعة البياض، لم أكلف نفسي عناء رؤية سعرها بقدر ما تمتمت في نفسي مقولة صاحبي أن: "الفقراء لا يستحقون إلا الموت"

في هذا الشارع الطويل كانت الأضواء مبهرة حقاً، والأسعار أكثر إبهاراً، اللافتات المضيئة هنا لم تبدد ظلام الشارع الجانبي الذي يقطنه بعض السكان الذين يتفرجون فقط ولا يشترون، ويتمنون في الليل وينسيهم النهار الطويل الذي يقضونه في أعمالهم ما تمنوه بالأمس.

من الجيد أن تحلم ، والأكثر جمالاً أن تنسى تلك الأحلام الغير قابلة للتحقيق ، ولهذا يحلم الفقراء وأعينهم مفتوحة، وتطوى الذاكرة إلى حين ميسرة بمجرد إغماض أعينهم!

عندما تمتلك مثل حذائي لن تحمل هم فقد أي شيء، ولكن يجب عليك أن تقتصد في مشيك قدر الإمكان، هذا لأن أحذية الفقراء تدوس الأرض كثيرا عن أحذية الأغنياء.

في حينا مخبر

ليس هناك من سبيل سوى أن أتظاهر بأنني أربط حذائي كي أعلم لماذا يمشي خلفي هذا الرجل ذو البشرة السمراء، منذ اليوم الأول له في حينا وأنا لم ارتح له ولا لنظراته وطريقة تباطىء مشيته كلما رأى تجمعا من البشر محاولا التصنت عليهم.

للوهلة الأولى شعرت أنه أذنا قد نمي لها كائن بشري يمشي ويتجول بين الناس كي ينقل أخبارهم، هذا هو عمله كما نقلته لي أمي عن وكالة الأنباء السيدة "سعاد رويتر" ، التي تعرف كل صغيرة وكبيرة تدور في حينا
لكن لماذا يمشي خلفي بمثل هذه الطريقة المستفزة؟
- سألت نفسي ماذا فعلت؟
- أي حمق ارتكبته يا محمد اليوم؟
- لا شيء، لا شيء
- صحف المعارضة؟
- هجرتها للأبد، فالزواج بيننا غير شرعي بالمرة!
- الصلاة في المسجد؟
- أتمزح يا أحمق؟
أنت تصلي في بيتك مثل النساء منذ عهد بعيد لمجرد أنهم سرقوا حذائك!
كل هذا دار في ذهني وأنا أستند على الجدار مترقبا مروره من أمامي ولكنه قد اختفى!

فرصة جيدة كي أتحسس وجنتي، أخشى أن يكون قد نبت بها ولو القليل من أمارات الإرهاب ، انتظرت كثيرا ولكن الوافد الجديد إلى حينا لم يأت ولم يمر

من أمامي كما خططت، مشيت مسرعا فلاحظت أنه يلاحقني من جديد!
-ياالله ، بدأت أشعر أن هذا الغبي وضعا خصيصا من أجلي، لابد أن أنتبه للساني وإلا ذهبت وراء الشمس، صحيح أنني أنوي الحصول على شقة ولكن لا أريدها بأي حال من الأحوال طالما ستأتي-إيجار جديد- وراء الشمس، كهوف الإسكيمو نعمة كبيرة!

في عهدي السابق كنت أقف هنا في محطة الأتوبيس أسخر من كروش القوم ومن خطط الحكومة الخمسية التي يلفون الفاكهة بنصفها ويقرءون بقيتها في الجريدة، أما الآن فالرجل ذو البشرة السمراء يمشي خلفي أينما ذهبت ، لابد أن أوزع الابتسامات الحمقاء على كل الرجال الحمقى الذين يحملون أرغفة الخبز تحت أذرعهم والجرائد فوق رؤوسهم في بلاهة متناهية!
لابد أن يظهر في ابتسامتي أنني راضٍ عن كل شيء وأي شيء.

في هذا الواقع المنكس تلد كل النساء توائما ، فكل منا يولد وبصحبته-خوفه- توأمه الذي يشعر به حتى لو افترقا، بدأت أشعر فعلا بالخوف هذا الذي لم يزر قلبي يوما حتى رافقني هذا الرجل غريب الأطوار الذي يظهر ويختفي في ظروف غامضة!

دار بذهني كل حلول المآزق
هل أجري؟!
ولكن لن ينفع الهروب فأعينهم في كل مكان، لابد أن أواجه خوفي وأدقق في وجهه ولو مرة واحدة، كي أعرف هل يمتلك تلك الملامح التي رسمناها له؟
رفعت يدي عاليا كأي أسير حرب يستسلم لخصمه ، واستدرت ببطيء فلم أجده، درت بجسدي دورة كاملة حتى اكتشفت الحقيقة المرة:

السيدة سعاد رويتر تتهم خيالي بالتجسس على أخبار الحي!

حالة حمار

لا تنظروا لي هكذا..

تمر الأيام وهو كما هو يعمل في حقلنا بلا كلل أو ملل ، تمر وهو كما هو على وفائه وطيبته الزائدة، بينما نزداد نحن من حوله قسوة وتزداد خلافاتنا يوما بعد يوم.

إنه حمارنا ولكي لا يفاجأ أحد من السطور القادمة فهو ليس كأي حمار إنه فريد من نوعه فريد في أخلاقه ومبادئه وتصوراته لمستقبل معشر الحمير!
نشأت علاقتنا منذ كنت صغيرا بينما هو لم يذل "جحشا" يجرى في الشارع نلهو ونلعب سويا غير مكترثين بنظرات الحاقدين من حولنا التي تحسدنا على هذا الانسجام بين معشري البشر والحمير.
الانسجام الذي قد يصل أحيانا أن أقبله من فمه وأقرص أذنه كما يفعل بي والدي.

ثم دارت الأيام ولعبت الفوارق الطبقية عاملا أساسيا في عدم استمرار صداقتنا لكونه عاملا عندنا وأنا بن صاحب الحقل، فانشغلت عنه وانشغل هو عني أيضا بالمهام الانتحارية التي كان والدي يكلفه بها.

صوت زفيره والسياط التي كان لظهره منها نصيب كبير، يذكرني بالسخرة والعمال الذين حفروا قناة السويس، بالرغم من أن أبي ليس خديو على الإطلاق!
أحرف بسيطة تستطيع أن تأسر بها هذا الحيوان المهذب وتتحكم في برمجته المكونة من حرفين لا أكثر على التوالي، هما الحاء والألف!

هذان الحرفان هما كلمة السر لكل من يريد أن يمتطي أظهرنا، فبهما تُحكم شعوب وبهما يسيرون ولو قدر لي حذف أحرف من اللغة لحذفتهما على التوالي نكاية بأبجدية الخوف هذه.

أحيانا كثيرة أشعر أننا بيننا قواسم مشتركة بغض النظر عن القوائم، يكاد هذا الحمار أن يبوح لي بأسرار لا تعرفونها
يخبرني مرارا أنه لا يفهم لغتنا إلا عندما نتحدث بصوت عالٍ، وانه لولا هذه العادة البشعة والضجيج الذي نحدثه ما فهمها.

قال لي ذات ضجر:
تصفون قومنا بالغباء، وهذا ظلم لنا يا سيدي ألا ترى أنى أعرف طريق الحقل وحدي فأحمل أمتعتكم وأنتم مغمضون أعينكم ، ألا أميز أصواتكم فأعرف متى أقف ومتى أتحرك ومتى أقوم إن كنت جالسا ؟
ألا تسمون هذا "برستيج" في عرفكم؟
بكل صراحة تؤلمني تلك النظرة التي تنظرون لنا بها...
كيف تصفونا بصفات لم تعرفوها إلا من خلال زويكم!
وضرب بقوائمه في الأرض حتى بدت حفرة عميقة!
ثم أكمل حديثه مشيرا إلى أن أركب ظهره، ففعلت على الفور.

وما أن ركبت ظهره حتى قللت من شأنه في نفسي فقلت إنه مثل أي حمار أركب ظهره وأفعل له برجلي هكذا وأوجهه أينما أريد.
وهنا شعر الحمار بما في نفسي فقال لي:
تظنون أنكم عندما تركبون ظهورنا بأنكم تتحكمون فينا، ولكنكم حمقى بما فيه الكفاية ولا تفقهون شيئا!
هذا يسمى في عرفنا كما في عرفكم تبادل المصلحة

ثم قال يصوت خفيض مقطعا أحرفه:
"الشيـ ء مقابل الشيـء"
ثم نظر إلي كما ينظر أحدنا للحمار الغبي وقال:

أنتم تطعموننا وتحموننا ونحن في المقابل نؤدي إليكم خدماتنا،على الأقل لسنا كحكامكم الذين يحمون دول ولا يستفيدون منها سوى الإهانة والإحراج !
فقط بمنتهى البساطة برر هذا الذكي ما يحدث حتى ألفت نظرته للأمور واقتنعت بها، وبدأت مشاركته الرأي في الكثير مما يقول.

لاحظ الحمار أنني بدأت أتعامل معه بأريحية، وأتقبل صداقته فقال لي مازحا:
ذكرتني بجحا وجدي الحمار الأكبر، من سلبيته حتى يرضى كل الأذواق ركبنا تارة وسحبنا تارة وحملنا مرة أخرى...وهنا نظر إلى بابتسامة ساخرة قائلا:
-هل رأيت فقد امتطيناكم أيضا؟!
..ولكننا لا نتندر بها كما تتندرون بركوب ظهورنا.

نحن لا نطعن أحد في ظهره يا سيدي...
ولا نضع أقنعة مزيفة ولا نستخدم العدسات اللاصقة لنخفى لون أعيننا الحقيقي ولم نصنع قنبلة ولم نقتل أحد ، فقط نعض ونرفس إذا أفزعتمونا!
ما ذنبنا إذا كنتم لا تحترمون إلا منطق القوة، ولا ترضخون إلا للظلم!
ما ذنبنا يا سيدي؟!

بعد هذا المشهد الدرامي..
شعرت برغبة شديدة بأخذ هذا الحمار بين ذراعي وأقول للعالم كله أنني أريد إنسان بهذه المواصفات ، وإن لم أجد فقد اخترت هذا صاحبا، ثم رجعنا إلى المنزل بعدما لاحظ غروب الشمس فمضى مسرعا.

ومضيت أنا وأقصى ما أتمناه أن يصاب بنى البشر بحالة حمار، فلا زيف ولا قتل ولا أخذ لحقوق الآخرين.

أقولها يا سادة وأجرى على الله:
أنني أفضل مصاحبة هذا الحمار عن مصاحبة الكثير من حمقى بنى البشر، لو كان الأمر بيدي يا حماري العزيز لجعلتك أمينا للأمم المتحدة!

ثرثرة على جدار الليل ..

ثياب الضوء معلقة!
وساعتي الموضوعة جانبي تدل على أن ميقات الحزن قد حان، وطقوس الحنين لم يبقى منها سوى أن يخفت النور وأستدعي اغترابي.

أفتقد ظلي فلا أجد سواكَ ظلا لقلبي
غريب أيها الليل تقاسمني أنيني، كما تقاسمهم أصوات شخيرهم
تؤرق أناساً هنا وتربت على أجساد هناك.

الحزن أكثر جنود الليل وفاءا، والصمت صاحب لا يمل من إرهاق رؤوسنا بمزيد من الصداع!

كوب من الشاي في هذه الساعة كفيل بمنحي سعادة بالغة
ولا أدري ما علاقة الشاي بالسعادة ؟!
أم أنه وسيلة أخرى للتحايل على الحزن الذي يغلف مثل هذه الليلة الباردة؟

اكتشفت وأنا أحضر الشاي أن المطر أكذوبة الشعراء الكبرى يبللون به جفاف أفكارهم، ويثرثرون به كي يضيفوا مزيدا من الصفحات كما يثرثر هذا المطر على رصيف الشارع بجانبي ويضيف إلى أسباب صداعي أسباب أدبية أخرى!
تماما كما تغنوا للقمر ووصفوه بالرقة بينما هو قطعة من الحجر
وكادوا أن يحرقونا بضوئه بينما هو معتم تماما كليلة بدون قمر!
لو قابلت أحد هؤلاء الأدباء الآن لرجمته بقطعة من القمر، أو أخرجت له لساني كما كنت أفعل للمطر!

صفحتان وينتهي دفتري، وما أقبح الليل بدون ورقة وقلم
وقدم هناك مهما بالغت في تدثيرها فهي باردة!

ولكن بما أني حزين هذه الليلة، وقد خالفت الأدباء فكيف أكتب.. ولمن؟
فقد تخليت عن الوفاء الأدبي للقمر والمطر ولا أجد مبررات واقعية لسبب حزني كي أكتب عنها..

إذا سأكتب عن الشاي
ففي نكهته ألف جلاد للصداع، ورشيفات قليلة منه تجعلك تطلق العديد من آهات الارتياح!
سأكتب مثلا قصيدة غزلية عن نصفه الممتليء!
أو قصيدة فاضحة وأنا أجرده مما هو فيه
أو أخدش حيائكم وأكسره كي أرتاح.
ولكن فكرة الكتابة لكوب شاي لا أعتبرها ناجحة كفكرة تقديمه لأحدهم..

إذا سأكتب عن حبيبتي
ولكني سأضطر أن أذكر القمر وأقول أنها أجمل منه بكثير
أو إخبارها بأنها تمنحني سعادة بالغة أكثر من تلك التي يمنحني إياها كوب من الشاي
ولكن أيضا فكرة الكتابة عن حبيبتي لم ترق لي وخصوصا أنني أخبرتها منذ قليل أن تنام
لا أستطيع أن أكتب هنا بينما تشخر هي على الطرف الآخر من سلك التليفون!

مممممم..
إذا سأكتب عن مآسي المسلمين وخيبات العرب التي لا تنتهي..
والكلام هنا كثير ويجعلني أنهمك في الكتابة حتى يغزو النوم عقر رأسي،
ويجعلني اشتري دفترا آخر في الصباح وربما عدة دفاتر كي أسطر بقية همومنا.
ولكن لحين الانتهاء من الكتابة ستظهر مشاكل أخرى ولن أخرج عملا كاملا عن مآسينا إلا إذا كتب ونشر في ساعته وتاريخه!

وأيضا أنا فريد من نوعي وفريد شوقي وأشياء أخرى فريدة زوجة الملك فاروق على ما أعتقد!
لن أكتب عن مآسي المسلمين وأكون نسخة من الجزيرة،العربية، الحرة،...إلخ من الوكلاء الحصريين لتوصيل مآسينا حتى باب المنزل)

مممممم..
يبدو أنني سأضطر مؤخرا للكتابة عن فقراء العالم
ولكن ماذا ستقدم الكتابة للفقراء؟
وماذا سيحدث لو قلت أن العالم ينقسم إلى نصفين أغنياء وفقراء ؟
وأن نصفهم لا يدري عن الآخر شيئا، والنصف الآخر لن يستفيد من عنصرة موضوعي إلى فقراء وأغنياء!
لا يحتاج الأمر الكتابة عنه، يكفي أن تغمض عينيك وتحرك ما يشبه نموذج للكرة الأرضية وتختار مكان عشوائي كي تعرف أن هنا فقير في بلد ما لأول مرة تسمع اسمه، ويبدو أنني لست كريما بما يكفي كي أضيع آخر صفحات دفتري في الكتابة عن الفقراء!

المشاكل كثيرة والقضايا التي أستطيع الكتابة عنها أكثر ولكن حان وقت النوم، بالإضافة أنه ليس من المعقول أن أكتب كل ما سبق في صفحتين فقط!

أيها الليل
قبيح أنت بنجومك وقمرك ومطرك وسكونك
بدون حبيبتي!

غريب أمره يتقاسمه البار والفاجر في تناسب طردي وعكسي على السواء، يسد أفواها هنا ويملىء خزائنا هناك.

هذه القدم العابثة هناك في كل الاتجاهات بحثا عما ستتوارى فيه أخبرتني أن رحلة البحث قد بدأت منذ الصباح عن أشياء بدونها سنتوارى خجلا.
لست بحاجة أن يبرز لي أحدهم من تحت الأرض كي يطالبني بسداد فواتير الحرب العالمية الثالثة!
ولست بحاجة أيضا أن تنشق هذه الأرض وتبتلعني وأنا أحاول التملص منه.

كل شيء يمر بسرعة هكذا أخبرونا أننا في عصر السرعة، ولولا محاولاتي التي تبوء بالفشل كل مرة وأنا أحاول أن أكون مواطنا صالحا بكامل أناقته في أقل من دقيقة لما صدقتهم، بالكاد تتشابه الجوارب مرة واحدة أو مرتين درءا للبلاهة التي تعلو محياي وأنا ارتدي جواربا بألوان مختلفة مشهرا ابتسامة بلهاء في كل الوجوه.

بحاجة أن أنفض التراب عن كلماتي القديمة وأعلق هذه النصيحة على جدار الأيام، مفاخرا بها أمثالي ممن يتعلقون بالأوهام أكثر من الحقيقة
- منذ متى حملت الطيور هموم رزقها؟
- فتأتي الإجابة من قاع هذا العالم المادي الذي نحياه:
أن طيورك لها أجنحة وتنعم بحريتها، أما أنت لم تزد على حماقتك سوى قدم وجيوب فارغة..

- تبا لكل من يتحدى عقولنا وجيوبنا!
- إن كانت فارغة كعقلك فهي تمنح دفئا يقيني برودتك.
في الوقت المستقطع بين عقلي ولساني دار بذهني أن من يتعلقون بالخواء وينظرون للنصف الفارغ من الكوب تتعلق أبصارهم بكل ما هو فوق مستوى أنظارنا.

هل من العيب أن نتحلى بتلك الانحناءة التي تنظر للنصف الآخر الممتليء؟ لكن ما يعالج كرامتنا أنهم قد لا يحصلون على شيء من الفراغ الذي يحدقون فيه.

الاعتراف خير وسيلة لتخفيف العقوبة، ما أنا سوى الوريث الشرعي الوحيد لما فكر فيه أجدادي وشغل عقولهم، أكاد ألمح جدي العاشر ملوحا لي من هناك أنها طاحونة الحياة يا بني ، احترس أن تطحن عظامك بسويقهم، وأنا أقف مذهولا أتمتم أن لا ينجي حذر من قدر يا جدي!

هناك ألف حجاج يطوي التاريخ كل يوم كي يبصق بوجهي تلك الحماقة:
-سأقطع رزقك ورزق أولادك
ومن أين لي ذلك الإيمان الكامل كي أبصق بوجهه أنا الآخر بأسوأ مما قال؟
سأدفن رأسي داخل القطيع متجاهلا "جوع كلبك يتبعك"، محرضا كل من يقابلني ألا يلهث مثلما أرادوا!

وحتى إشعار آخر سأقف في هذا الطابور مرة أخرى، مرتديا -طربوش- هذا الذي يدل أنني رجعت عقودا للماضي ، كي أوقع من جديد على جريمة استلام راتب لا يسمن ولا يغني جيوب.

من بعيد: قلوب متقاعدة

ميثاق الحزن

وكأن الحزن هو ميثاق الشرف الوحيد الذي علقت أحباره بالقلوب وطويت أوراقه بين دفتي اغتراب
لا وقت لمساحة كذب ولو صغيرة كي يسلى بها هذا الذي فقد كل شيء حتى اعتاد الفقد
وخسر كل شيء حتى أنه دخل كل معاركه ولم يأبه لنتائجها
ليس لثقة ولكن لأنه على يقين مقدما بالنتيجة الحتمية لشيء ما يدعى"حظ عثر"

تتعثر خطاه عند كل تحدي لقانون المسافات، فتشتعل الورقة الأخيرة في رواية حاول ذات مرة أن يكتبها تدعى" للأمام"
فتسقط أشياء لم يكن لها يوما أن تسقط، ويسقط هو معها في بئر سحيق خصص له وحده.

لم يكن نبيا ولم يكن له"يعقوبا" يبكي لأجله وينتظره، حتى أنهم ليكادوا يرسلوا واردهم فيدلي له بخنجر سطرت عليه قصة حياته مكتوب في نهايتها
"أقتل نفسك لو كنت رجلا"
فتبيض عيناه حزنا ويشم رائحة جبنه لولا أن تفندون!

لما لا يصلنا من ثرثرة الكبار ومن شاخت تجاربهم سوى طول الحديث عن أمجادهم،
لم أجد منهم من تحدث ذات يوم عن هزائمه وكم خسر غير عدد أسنانه وشعرا

كان يغطي جبهته.
لم يحدثونا كيف تشيخ القلوب فلا تتذكر سوى هزائمها
ولم يخبرونا عن القلوب حينما تتقاعد وتأخذ مكانها في زاوية المقهى على يسار الأحلام، أمام طاولة الذكريات.

في هذا المقهى الذي يعج بالنبض والضجيج
هل لي أن أطلب كوبا من الحنين..؟!
هل توجد هنا فرصة أخيرة لإصلاح هذا القلب المعطوب؟

لوهلة ظننت أن عامل المقهى سيأتي بعدته ويخرج كل هذه المشاعر المتشابكة في قلبي ويعيد ترتيبها من جديد، لم أجد بعدها سوى الموت يتآمر علي خلف لفافة التبغ فتبدو كل الوجوه خافتة خلف سحائب الدخان.

ويذهب الجميع ولم يبقى غيري أشغل هذه الطاولة وتشغل أحزاني باقي الطاولات
أوزعها حولي باحتراف، الأقرب فالأقرب حتى تنفد كل المقاعد فأدخر بقية آلامي ليوم جديد!

ويأتي الحساب:

كوب حنين..لم تشرب سوى نصفه
قهوة ترجم الصداع وتذيل الشرود
زجاجة مياه تداوي الفقد، وتميمة تجلب الحظ
أنت واهم! : Total

في هذا البرد والحزن القارصين، وفي الشارع الخلفي للسكون كان كل شيء يخفت تدريجيا حتى أعمدة الإنارة أنهت هذا المأتم التي كانت تصطف فيه كي تتقبل تعازي المارة وهم يسيرون بخطوات مثقلة.

وينزل المطر كي ينظف الشارع من أحزانهم التي سقطت ولم يلتقطها أحد.
في هذا السكون المريب وهذه الظلمة الحالكة هل يمكن لأحد أن يخرج قلبه في العراء ويتركه ويهرب؟!

ماذا لو تركته هناك في هذه الزاوية ومضيت مسرعا متظاهرا أنه لا يخصني؟!
هل سيتعثر به أحدهم ليشقى به، أم سيسوقه المطر إلي من جديد ويرقق صدرا لا يريد أن يحتوي أحدا؟

كل شيء مبتل تقريبا، وأضواء السيارات تتراقص من بعيد خلف قطرات المطر فتسوقني قدمي حيث موضع النور، كثيرة هي الأشياء التي تلمع هناك وأنا على يقين أنها ليست سوى طُعم، وأن لمعانها لم يكن سوى بريق احتضار!

في هذا المحيط لا تأكل الأحزان الكبيرة أحزانا صغيرة، محيط مستبد بعدله وفوضوي بمثاليته
في الحزن لا مجال للاختصار، كل الذين حاولوا أن يقسموا حزنا على حزن علموا أن المحصلة في النهاية واحدة، وأن هذه المحاولة العابثة تبني طوابقا من الوجع يسكن أعلاها حزن كبير.

تباريح

ميثاق الحب

إلى القابعة هناك خلف جدار الزمن
تجدل الأيام والشهور..
تنتظر حروفي كي تتعطر بها بقية الدهر
إليها هي وفقط، دونما أدنى شك !

(١)

عندما تتبدل ملامح الرجال..

وتخبرني أني حملت روحا هشة وأودعتها شواطيء الأمان،وأقولها بمليء الحب يا فاتنتي أنكِ من نقضتِ وجعي القديم وغزلتيني أحرفاً من نور.

منذ أمد بعيد يا سيدتي وأنا بحيرة راكدة ضاقت بسكونها ولعنت تراتيل الصمت آلاف المرات، حتى حللتِ في أعماقها، وبللتِ حوافها التي انتظرت صعود الماء كمن ينتظر صعود الروح.

منذ قرون يا سيدتي وأنا قيثارة تبتهل في خشوع عسى الله يرزقها من يعزفها، وعود بلا لحن اشتاق لأصابعٍ تعبث فيه من جديد، وتفجره ألحانا تملىء الدنيا ضجيجا.

حتى حللتِ كالقمر في أشد ساعات الليل حلكة وأنرتِ دربي الحزين، وعدلتِ ملامح هذا الوجه الذي اختبأ خلف ابتسامته الواهية،فتساقط حزناً وكمداً وهم لا يدرون، إنه الحب عندما يعدل ملامح الرجال، ويرسم على وجوههم أمارات الشوق ، ويجعل من عيناي مرساة حيث تسكنين، ومن رئتي اليسرى ممالك للعشق، تتربعين فيها وحدك أميرة
فمن مثلك يا من قهرتِ نساء الدنيا في قلبي وملكتِ جماح قلب شغوف؟

يالحكمة القدر حينما يضعنا وجها لوجه مع من نحب بعد طول انتظار، القدر الذي يثبت أن امرأة قد تحل في جسد رجل، ويسكن هو بداخلها فيصبحا شعلة

نار تنير طريق العابرين، القدر الذي اختزل آلاف الأميال بين قلبين، ولم يقرب قلوب من التصقوا فينا أبد الآبدين.

كم وثقت في رواد الأبواب الأمامية لقلبي حتى سلبوه وأودعوا مكانه أشواك رحيلهم، كي أعرف معك أن من يتسللون إلى قلوبنا خلسة هم من يسكنون فينا ويجرون في دمائنا، ويمشون على أطراف أصابعهم كي لا يتقاطر الدم من أوردتنا، حتى إذا رحلوا عشنا خاوين من كل شيء....

(٢)

إن كان بعض العطش لا يمكن رواؤه إلا غرقاً ، فأنا أريد أرتوي منك وأعبر الضفة الأخرى من نهرك.

تتلاطم أمواج الشوق على ضفة قلبي، تنعش ببرودتها ذاكرة أوشكت على الرحيل والتيه في غيابات لا يعلمها إلا الله، لأفتح عيناي فلا أرى غير وجهك، فما أجمل أن يبدأ سريان الروح في أجسادنا لنرى أول ما نرى وجوه من نحب لنستمد من وجوههم تقاسيم وجوهنا ، ومن بريق أعينهم النور الذي يضيء لنا بقية الطريق.

كأي صياد ألقى شباكة وهو لا يلقي لها بالا فأهدى إليه البحر عروس من أجمل ما يكون، تعلقت في شباكه وأقسمت عليه بالله ألا يتركها!
وكأي قطعة معدنية ملقاة على الأرض لم يأبه لها أحد، التقطتيها ، وضممتيها بيديكِ حتى استحلفتك بالله ألا تتركيها فهي لا تستحق كل هذا الحب.

هل تتحقق الأساطير بمثل هذه البساطة؟
وهل تشرق الشمس فجأة في بلاد كل ما فيها جليد؟
هل كان حبنا محض صدفة؟!
أي صدفة هذه التي تجعلني أحبك اليوم وأقابلك غدا وأحيا بكِ طوال العمر؟
إنه القدر حينما يهب لنا من يمسح دموعنا وقد اعتادت أن تجف حيث قدر الله لها أن تسيل..

كلهم كانوا يدعون الحزن يا سيدتي وأنا غارق في دموعي هنا، كالألف لم تشتكِ يوما من همزات الحزن فوق رأسها

كلهم يدعون الحزن ولم أر عبراتهم ،لم تعرف تقاسيم وجهي الفرح حتى منحتي هذا القلب فرصة أخيرة للحياة.

كيف للشوق أن يكتب دون أن تحترق الأوراق؟
وكيف لهذا الحب الذي يملىء قلبي ويفيض أن يوضع في ورقة مسطحة؟!
وماذا أفعل كي تعلموا " إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع.؟ "
وبأي لغة تستقيم التباريح فوق السطور؟
إن كان العطف يقتضي المغايرة، فكيف للشوق والحب والهيام أن يجتمعوا وهم وجوه لقلبٍ واحد.؟!

لا تستقيم اللغة إذا صارت-أحبك- دون مستوى الشوق،وإذا صار الشوق أقل بكثير من هذا الثائر في رئتي اليسرى.
كيف لقوانين البشر أن تفسر هذا الذي يخفق في صدري أربعة حروف في أقل من ثانية؟
ألا يجد الطب أكذوبة أخرى غير"الأدرينالين" ليفسر لنا هذا التسارع في دقات قلوبنا إذا رأينا من نحب، وذاك الاصفرار والاعتلال في سائر الجسد إذا رحلوا؟
الحب ليس كأي لغة أخرى تنتهي عند حدود أبجديتها، إنه يكسر القواعد ويعيد ترتيب الأشياء.

يجعل من أعيننا "صبٌ تفضحه العيون"
ومن القلب لا من العقل إشارات كهربية تسير في أنحاء الجسد لتقول له لا فائدة منك بدون من تحب.
يجعل من عيني ذاكرة دائمة لا تحتفظ إلا بصورتك، فأنطلق كالمجنون ألتمس وجهك في كل الوجوه.
إنه الأحمق حينما يقع في الحب فيخبأ أعين الناس ، بينما يظن أنه خلفك!

(٣)

عاشق يصارع ذيل القائمة

لا يمكن للبشر أن يعرفوا لهيب البراكين لأنهم لم يكتووا بنارها، ولن يعلم أحدكم الثورات لأنه لم يعاصرها، والحب بركان ثائر، فكيف لنا أن نميز ونفرق بين من مروا على فوهته؟!

ما أنا إلا عاشق على الدرب قلبه قارعة لطريق يتسكع فيه العشاق، سبقني من سبقني، وصاروا نجوما في سماء الحب، وقدري أن يأتي حبي في ذيل القائمة وما علي إلا أن أزاحم طوابير العاشقين كي أصل بحبك إلى أول الصفوف!
لا أرضى لوجهك الملائكي أن يستوطن القاع ، ولا أرضى لحبي بجنون أقل من جنون قيس ولا عبودية أقل من عبودية عنترة!

أريد لحبك أن يكون في المقدمة..

أسطورة قائمة بذاتها، يحكون عنا ويتيهون شوقا من عبق أجمل الزهرات في بستان الحب.
أريده حبا يرتشفونه مع قهوتهم الصباحية، وملحا على موائد غدائهم، وخمر أحاديثهم المسائية.
أريده جنون يفوق جنون قيس وعبودية تكسر معصم عنترة ورواية يتمنى شكسبير أن يكون مؤلفها!

هذا لأن الملائكة لا تسكن الأرض، وإن تكرم القدر بوجه سماوي مثل وجهك لابد أن يحتفي به البشر ويخلدوا له تماثيل الفرحة العامرة في صدري!

وليؤمنوا بتلك اللمسة التي نشرت الفرحة في أنحاء وجه عبوس، فطربت لها عرائس الروح المعلقة بخيوط من نور في أطراف أصابعك!
وليعلموا كيف يتحول جسد هزيل إلى جذوة نار بمجرد رؤيتكِ.

أراجع سطوري..عساها تسربت بعض ملامحك إلى الصفحة وأنا لا أدري
هل حكيت لهم عن ورد خدك أو صفاء عينيكِ؟
وكيف تبدو عقود الفل حول معصمك؟
هل حدثتهم عن ابتسامتك التي تدور بي الكرة الأرضية وتنقلني إلى عالم آخر؟
وهل أخبرتهم عن احمرار أنفك إذا بكيتِ ..وتورد خدكِ من الخجل؟
وأنا الذي كان يذوب خجلا من قبل، لأعرف معكِ كيف يخجل أحدهم مني!

عاشق آخر لمن لا يهمه الأمر، وأمر جلل لمن يرى بعين الحب.
لا يحتاج الأمر لأكثر من العين المجردة لكي نعلم من يهيمون على وجوههم، ولا أكثر من جلسة طبية واحدة لنعلم أنه داء يتمسك به صاحبه حتى آخر ذرة من قوته!

كيف يشفى من تعلق بكِ وأدرك حواسه لأول مرة معك؟!
مريض أنا لا أرتجي شفائي
دعوني أكسر كل قوارير اليأس التي تبعدني عنها
وكل جرعات الزمن قبل لحظات الرحيل!

(٤)

بعيدة أنتِ يا نجمتي، لكن ليس هناك مجنون غيري يستطيع أن يعتلي السحاب كي يهبكِ آخر أنفاسه!.

محمد

هكذا تعودت أن أكتب إليك وأذيل الصفحة باسمي كتوقيع وإقرار بأن ما سبق لكِ أنت فقط، ولا يستطيع أحد غيري أن يكتبه إليك!
لو استطعت أن أخرج قلبي كي يبصم على ما كتبت لأخرجته!
ولكن الأقلام حينما تكتب عمن نحب، فإنها تكتب بمداد قلوبنا، ومحبرة الشوق والحب لا تنضب في قلوب المحبين..

ربما هو غرور كاتب، أو فلسفة معينة في طريقة حبي لك
وربما ما سبق هو طريقة كي تتأكدي كما أخبرك دائما "أنا ملكية حصرية لك "
لو كانت الأعمار توهب لاحتجت أعمارا أخرى فوق عمري كي أهديها جميعا إليك..

هل يكفيكِ قلب واحد؟
وقلم ودفاتر عديدة؟!
هل يكفي أن أكتب لأجل عينيك ألف قصيدة؟
وأنا رجل مولع بالتفاصيل..
كيف أكتب عن لونيهما ، كيف تدور في خجل، وكيف تغمضيهما؟
ولنا مع العيون ما بين غمضة وأختها ألف حكاية !

ليس من المصادفة أن نتفق أنا وأنت أن للعيون لغة جميلة وثرثرة صامته لا يفهمها كل البشر.
يومها بادرتك بالسؤال بعد أول لقاء لنا:
-ماذا قالت لكِ عيناي؟
-أحسست فيها بالعمق، قالت أنك إنسان طيب.
وفي شيء من خجل...
- وأنك تحبني

أما أنا فقد رأيت في عينيكِ حب ولهفة وفرحة بقدوم حب طال انتظاره.
يحدث أن ننتظر شيء ما سنوات طويلة-مسافر مثلا-ثم نفاجأ أنه يطرق بابنا بدون أن نكون قد استعددنا لذلك تماما فنرتجف ونخبيء وجوهنا من هول المفاجأة ثم نرتمي في أحضانه.

وهكذا كانت بدايتنا الصغيرة..
أخبرتني بعدها أنك ارتجفت بشدة
وأخبرتكِ مؤخرا أن هذه رجفة دخولي عالمك يا صغيرتي!

(٥)

فليشهد التاريخ أن هناك رجلا في الألفية الثالثة له ملامح ليست كملامح قيس.
ينقش على كفه حروف اسمك، يبلل أصابعه بدموع عينيه
ويجعل من ساعده لوحة سريالية يغطيها الحبر والدموع!

حالة غريبة تلك التي تنتابني حينما يشق قلمي طريقه في كفي معلنا أول الحروف لام، ثم يكمل دائرة الشوق عند الميم، ويتقطع إربا مع نقاط الياء، وينقش السين في خيلاء!

ويجتاح ذاكرتي حروف اسمي التي نقشتيها على كفك ذات يوم بخط أنثوي جميل، فيختلط الحبر بالدموع يا سيدتي!

يومها لم تخطي اسمي فحسب ، بل عصفت بأوراقي القديمة البالية كما يعصف الخريف بأوراق الشجر ومنحتيني أوراقا خضراء كما الربيع.
ثمة رجل يبكي هنا، يتناسى ماضيه ويراهن على مستقبله المرسوم في كفك .

وهل يبكي الرجال وينتحبون؟!
هكذا تربينا يا فاتنتي على أن نخفي أشواقنا، فتخنقنا العبرات وفي العقل نصيحة عتيقة:
"لا تبكِ أنت رجل"

أبتلع دموعي إلى حين إكراما لكل ما هو تليد..
وفي الغرف الباردة كما الزنازين متسع صغير لرجل يريد أن يبكي
يحكم إغلاق الأبواب كمن يرتكب جريمة لا تغتفر، يبتلع حنجرته
يتكأ بساعده على الجدران ويحني وجهه للأرض حتى لا يراه العدم باكيا من أجل أنثى!

كيف لي أن أثور على النصائح التليدة، وأخبرها أنني رجل لا ابكي ولكني أتأوه؟ أنا لا أبكي ولكني أمارس طقوسي الخاصة للحزن.

ها أنا من جديد أسعى بين شوقي وحيرتي، فهل تكفي الجدران الأربعة؟ أريد أن أجاهر بدموعي على الملأ، ولكن ليس هناك متنفس سوى الورق ولا فرق حينما تنقل دموعك من بين جدران أربعة، إلى ورقة مربعة!

(٦)

كل الطرق تؤدي إلى الرحيل، وروما تفتح مصراعيها للموت!!

بعد رحيلك والفرحة غادرت أغصان قلبي، وها هو ينزوي في أحد أركان غرفتي يئن كمن فقد نبضه.
ما حيلته حين يقوم من آن لآخر يتعلق بستائر الشباك ينتظر قدومك من بعيد لا يفهم هذا القلب سياسات الترحال، ولا يعلم أن من يرحل لا يربت على كتف أحد ولا يمسح دمع أحد وأن الزمن لا يعيد نفسه للوراء.

ما أجمل سياطك يا امرأة..
وما أجمل عذابك..
لأول مرة اقترب من جلادي إلى هذا الحد..
قبيحة هي سمعة الجلادين ،لكن معك الأمر مختلف وقوانين البشر تعيد رسم نفسها لتثبت:
ما أجمل عذابك يا امرأة

مازلت أذكر ملامح الطريق التي مشيناها وقدميكِ المعفرتين بغبار مدينتي..
أتعلمين؟
كم وددت أن أتمدد بطول الطريق لأكون جسرا تمشين عليه
سيأتي اليوم الذي تتبدل فيه ملامح هذي الطرق وملامح المكان..
لكن لن يتبدل حبي ولن أنسى ملامحك وعينيكِ الصافيتين كمعين من نور يتلئلىء على صفحة قلبي.
أما الشجرة ستظل على وفائها تحمل أسمائنا ولكنها لن تحمل شوقي إليكِ ولن تحمل أنات صدري..
فقط ستكون شاهدة على رجل قد عشق امرأة حتى الثمالة وأحبها حتى آخر

قطرة من شوقه.

أضع ساعتك على أذني ينبض قلبي مع "تكاتها" وكأني أنام على صدرك
أشم رائحتك في صفحات كتابك..أتقطع إربا مع الإهداء:
"عندما يسكت الوفاء ..أموت"
أقبل اسمك على غلافه، وإلى الآن لم اقرأه، لأني كلما اختليت به ضممته وكلما حاولت القراءة ضممته مرة ثانية!

لن يسقط الوفاء ككل المدن التي سقطت، ولن تقتحم حصون مدينتي سواكِ
يا زهرة نبتت على جانب طريقي المليء بالشوك.
أيها النور الوحيد في دربي المظلم
لن أدقق في عيني أحد كما دققت في عينيك، ولن ألمس كف سوى كفك
ولن تتشابك أصابعي مع سواكِ.

عندي أمل أن يأتي اليوم الذي يُجمع فيه الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا..
وساعتها لن ينتزعك أحد من بين أحضاني، وسأمتص رحيق شفتيكِ بلا خوف من أحد.

" لقَد تعلم رجال القرن المَاضى التّفكير و الكَلام ، وقالوا ما لم يكُن معروفًا ..
وفى مقدورِ الذين جَاءوا بعدَهم أن يقولوا مَا هو معروف فقط"

فولتير

كيف تصبح قردا

يحكى أن والحكايا ليست حكرا على أحد والعهدة على الراوي والمستمع ومقص الرقابة:
أنه كان يوجد مطعم كبير يرتاده مواطنون صالحون لتناول وجبة الإفطار، وكان صاحب المطعم يعاني بالإضافة إلى جشعه قلة الأيدي العاملة، وما أن يطلب أحد الزبائن وجبة حتى يطلب الآخر وجبة مختلفة والثالث وهكذا..
فلا يستطيع تقديم كافة الوجبات مما ينتج عنه خسارة في الربح العائد وعدد الأطباق التي تتكسر فوق رؤوس العمال.

واستمر الوضع كما هو إلى أن اقترح أحدهم أن يجلس في أحد أركان المطعم وعليه حلة أنيقة تدلل على أنه رجل ثري لا حاجة له بالعمل ويطلب وجبة معينة بصوت عال،وما أن فعل ذلك حتى قلده بقية رواد المطعم وفعلوا مثلما فعل، فترى المكان كأنه خلية نحل بفم ببغاء تطلب نفس الشيء!

ربما هذه المقدمة الماكرة تثير شهيتكم للأكل أو النصب..
لا أدري!
ولكن ما يعنيني منها أن الإنسان بالإضافة إلى أنه حيوان ضاحك أو ناطق، مع تحفظي الشديد على لفظ حيوان، فهو كائن مقلد من الدرجة الأولى.
ما أن يكمل الابن أعوامه الأولى حتى تجده يدخن مثل أبيه،
ويحلم باليوم الذي يمارس فيه مثل هذه الخلوة الشرعية مع سيجارته
وتجد البنت ملتصقة في المرآه تقلد أفعال الهنود الحمر في وجوههم كما تفعل أمها.

وهكذا يقلد البشر طريقة مشي وأصوات ونذالة بعضهم!
حتى في مجال الأدب، لدينا مليون نسخة تسب وتلعن وتشخص حتى لو وصلت هذه الإساءة إلى الذات الإلهية!
وستجد حتما من يشير إليك بالبنان ويفاخر بأنك أديب عصرك وأوانك وسابق أقرانك من الأدباء الذين لا يملكون خيالا خصبا كخيال سعادة حضرتك!
دعونا من الأدباء فقد ملئوا الدنيا بالحروف والكلمات وصار كلامهم ينافس ذرات الأكسجين الذي نتنفسه.

عن طريق التقليد:
تستطيع ببساطة أن ترسي أحد المباديء الهامة، ويقرن اسمك بها طوال حياتك ومماتك، حتى وأنت داخل جهنم!

فقط ، استعن ببعض الكلمات التيتنتهي بـ(ية)/الديموملوخية/الرأس وسطية/ساعة عصرية!

- حاول أن تغير من شكلك، شكل شاربك مثلا أو لحيتك، أطلقها أو اطلق نصفها وجرد النصف الآخر وفي هذه معادلة رهيبة عن التوازن بين الدين والدنيا!
حتما ستجد من يقلدك ويربي شاربه مثلك ، وربما يرسي فلسفة جديدة بـ(ستايل) جديد!

- استعن ببعض الجمل القصيرة والتي توحي بشيء من الغموض والـ(فهلوة) معا تستطيع أن تقول على سبيل المثال:

(ما الدنيا سوى معصرة ونحن عود قصب!!)
ستجد من يصب من خلفك الكئوس، وتسكره كلماتك

كيف لا ، والكلام إذا خرج من أفواه الشخصيات الكبيرة والعظيمة صار كبيرا مثلهم؟

ولا عليك إذا اتهمك أحدهم بالحماقة، فهم لا يدرون أن الحماقة هي الإسم الحركي لبعض الفلسفات!

تستطيع بالتقليد أن تصبح كل شيء، وفي كل وقت
ابتسم بمكر وخباثة، تصبح سياسيا محنكا!
عدل شاربك كشارب هتلر، تصبح قائدا لا يشق له غبار، ولا تحرق له آبار!

حتى القردة تستطيع تقليد البشر، نوم العازب وعجين الفلاحة، وتحلم بدولة من النيل إلى الفرات.
فمتى تصبح أنت أنت وفقط؟!

هذا الأفق البعيد يلتهم الراحلين، ليتركنا في النصف الآخر من الحياة، نبكي صورهم المتجمدة على مرايا الذاكرة..
نندب حظنا..نبكي كثيراً..
نشقى بهذا الرصيد الكبير من الحزن، الذي يُضاعف كلما حاولنا التخلص منه، لأنه العملة الوحيدة التي يمنحها الزمن بسخاء ولا يتداولها الناس إلا نادراً..

الحزن هذا المولود الذي لا يحبو بل يثب واقفا، ويشتد عوده، ويشيب قبل أن نسطر اسمه في دفاتر المواليد، والقلوب تلك الأوعية الحافظة التي ينسج خيوطه داخلها، ويملؤها لكنه لا ينضح خارج جدرانها.

يا ترى..
هل سيكون من الحكمة يوما أن تثقب قلبك كي تتخلص من حزنه؟
أم الحكمة أن تجعل لنفسك ثقبا من الرضا؟

يزعمون أن النسيان نعمة، وكم راقصوا بلاهتي عندما أخبروني أن أشرب الكثير من المياه كي أنسى فازددت إلى همي غثيانا!
النسيان ذلك الذي يحدثنا عن همومنا كأنها قطعة ثلج تذوب مع الوقت.
هذا الدواء التافه الذي فشلوا أن يخدروا به أروقة الذاكرة العنيدة، ولم يستطيعوا أن يتحدوا به ذاكرة الزمان والمكان فضلا عن ذاكرة العقول والقلوب.
"غدا تنسى"، ويأتي ألف غد ومازال الهم مرابطا.

ليس من المعقول أن نمضي نصف أعمارنا نحب أناسا حتى تتشرب خلايا الذاكرة بتفاصيلهم، ونمضي النصف الآخر من الحياة في محاولة نسيانهم وتجفيف أرواحنا منهم.

لهذا خلق الله الرضا، تلك النعمة المنسية التي غفل عنها الساخطون فتخبطوا في دوامة النقم والهم، لأنهم لم يقبلوا الفقد كطبيعة لا معطل لها، وأنهم سيكونون في يوم من الأيام بحاجة لمن يقبل هذه الطبيعة عنهم.
لابد أن نقبل الحزن كدفء لا غنى عنه لقلوب باردة خاوية، ولابد أن نوغل في هذا الحب البشري وهذه العاطفة برفق، لهذا جاء "أحبب من شئت، فإنك مفارقه"

هذا العقل الذي يفكر بانتظام فيمن رحل، لابد أن يفكر في حكمة الله، وهذا القلب الذي يخفق لمصابه، فليهيأ نفسه لمصاب أكبر، لأن الدنيا لن تقف عند رحيل أحد، فعجلة الحياة ستقطع الطريق في ميعادها المحدد دون أدنى إلتفاتة.
لكن أكثر ما أخشاه أن تمضي مصائبنا دون أن ندرك لطف الله في قدرة، ويمضي بنا العمر دون أن ندرك حكمة الله في تدبيره لشؤون خلقه.

الإنسان يهول مصابه، ربما لأنه يظن أنه سيكون الأخير، ويجزع لحزنه لأنه يظن أنه لن يصاب بحزن أكبر ، والمخبول هو ذلك الذي ظن أن نقطة البداية انطلاقة للخلف!
الأسوأ من ذلك أن تجزع لمصاب صغير، وتحزن للاشيء سوى أنك تريد أن تحزن.

أحيانا يقع الكثيرون في هذا المطب، ويحكموا لف هذه العقدة حول رقابهم
ربما يعد هذا فراغا، وربما هم سعداء بما يكفي كي يحزنوا!
أما أنا فأحاول أن أحتفظ بهذه النسبة دائما: أن أصبح حزينا بما يكفي كي أسعد!
أشياء بسيطة ولكنها قد تفتح علينا بابا من الجحيم، لأننا لا ندرك أن المسودة على بساطتها قد تحوي خلاصة المشكلة!
كل الحكايات التي بدأت بـ"كان يا ما كان" لم يكن من المقدر لها أن تتم لولا عبث الكاتب، وانصياع الأبطال تحت سطوة قلمه النحيل، ورضوخهم لتلك الضغطات الخفيفة، وهذه الحكاية لم تكن لتنتهي لولا نقطة النهاية التي وقفت كرادع لمحاولات تجاوزها.
و هذه الحرائق التي تلتهم كل شيء، أتحدى أحدكم لو جاء بعود الثقاب الذي بدأ شرارتها الأولى!

أيضا..
هذا اللص الذي يطرق بابك، لم يكن ليدخل لو لم تدر مفتاح بابك نصف دائرة.
هكذا تكون البداية، بسيطة حينما تتآمر علينا، معقدة عندما نتآمر عليها

الأحمق هو ذلك الشخص الذي يقع في حفرة حفرها بيديه، والحماقة أن تحفر حفرتك، وتقع فيها، ثم تضع ترابها فوق رأسك كي تموت!
لهذا، قبيل أن يمضي بك الدرب إلى حيث لا تدري..
حطم هذه الأبواب..
فكر ولو قليلا لما هذه النوافذ مشرعة هكذا؟!
هل تهرب..؟!
أم أنك ستظل هنا تشاهد أسراب الفرحة وهي تغادر ديارك؟
وللذين لم تبرد جراحهم بعد يقول علي ابن أبي طالب-كرم الله وجهه-:
"كل نعيم دون الجنة محقور، وكل عذاب دون النار عافية"

الأبيض يبقى وحيدا

يولد البشر جميعا بنفس النقاء-الفطرة- حتى تتلقفهم أيدينا، فيبدأ اختبار ضعف المناعة الأول!
أعلم أنني كنت- ذات يوم- نقيا، إلى أن تعكر ماء النبع الذي خاضوا فيه، كل من مر هنا ترك شيئا من آثامه ومضى، ليبقى السوء هو التذكار الأخير ممن يعبروا طُهرنا دون أن يدروا كيف لوثتنا أيديهم وعقولهم، لكنهم يتركوا فينا حكمتنا الأولى التي نتعلمها من الحياة أن الخير والشر يسيرون على قدمين قد تسبق إحداهما الأخرى بكثير، ليشتد عود الفقد بداخلنا ونعلم أنه لو وقف العالم عند من رحلوا، لما دلف إلينا هؤلاء الراحلون!

في دوامة الأسئلة تتناثر إجابات خاطئة، ولم أكن حينها بمقدرة على جمل الإجابات الصحيحة، والإتكاء على قسوة علامات الإستفهام.
عندما تضيق علينا الأرض بما رحبت، نتمنى أن نتكور في الدنيا كما كنا في بطون أمهاتنا
حتى لا نغرق في لجة الشك في أقرب الأشياء إلينا.

هل يبدو ذلك صحيحا أننا لا نرى في الظلام، أم الحقيقة أننا نرى الظلام ؟!
أيعقل أن تكون ظلمة الرحم أهون بكثير من ظلمة الدنيا؟
ولكن تبقى الإنسانية بكامل شيخوختها، لا تمتلك الإجابة على تساؤلات طفل صغير بعبارات شافية!

إنه الإنبهار الأول بـآلية الضعف البشري، كيف يرقون سلم الملائكة وفي الوقت نفسه يهبطون إلى قاع الشياطين، إنه الخير والشر عندما يأتيان في صور متعاقبة لم تعتدها عين الطهر..إنها أولى دروس الخطيئة وحتمية المعصية!

تكون العلاقات الإنسانية جد خادعة عندما ننسى أننا بشر، عندما نفرض على أنفسنا اختبارات الملائكة ونحن لم نتعلم حتى منهاج البشر كاملا، فتكون النتيجة بهذا الفشل المذري.

كثيرا ما اشتعل فتيل الثقة عند الاحتكاك الأول ببشريتنا، حتى أتت المعادلة النهائية لتخبرنا أن من ينشد الكمال دائما، فيه نقص دائم!
لكن خير الناس من يصبح تربة مالحة تتحدى جذور الشر، وفي الوقت نفسه يصبح أرضا خصبة لتلقي بذور الخير، علما أن ظروف ضعفنا ليست مناخا مناسبا للتربتين!

نحن نتمنى من الناس أن يعاملوننا -على الأقل- بالمثل، ننتظر منهم الخير بقدر ما نحمله داخلنا من خير، ونخشى من شرورهم طالما غرقنا مثلهم في الوحل، ولكن ترتبك هذه المعادلة عندما تمتد يد لتربت ثم تتحول في يوم ما لتصفع، وعندما تتحول الابتسامة لناب لا يريد سوى أن ينهش!

لم أقف يوما عند عيوب غيري، بل تعودت أن أقبلهم بعيوبهم كما يقبلونني – أحيانا- بأخطائي
لا أريد أن أكون مثل بعض الناس الذين يرون عيوب غيرهم بالعين المجردة، وفي الوقت نفسه يحتاجون نظارات معظمه كي يروا عيوب أنفسهم!
فقط لو الوقف الإنسان عند أخطائه بمعدل مرة واحدة عند كل" غيبة ونميمة" لنافس الملائكة في منازلها.

بدون معصية سنصبح أشياء جميلة بلا قيمة!
لا تعرف طريق العودة ولا لذة الأوبة، لم تجرب ضيق الشر حتى تعلم سعة الخير
أريد أن أحتفظ بنصفيَ للأبد، وأسأل الله دائما ألا تتجاوز معصيتي فسوق الأتقياء!
كما أسأله ألا تخلع الدنيا أردية الستر عن قلبي العاري.

بعد أن أيقنت أننا بشر، علمت أننا سنصل للكمال، فقط لو ابتلع الطريق المسافة!
علمت جيدا أن الأبيض يشقى إن بقي وحده، لابد من مساحات رمادية تهبه الحياة، فتعيد تشكيله وتعبث بتضاريسه كيفما تشاء!

أقصى يسار الحُب

سأحتفظ بالوردة والقنبلة للأبد..!

سيظل ألمي يجلد لحظاتك السعيدة يعلقها في سارية الوقت وينقص من أعمارها ، كي تدنو من تعاستي ولو قليلا!
يا ترى كم من النوايا السليمة كنت أحتاجها كي أستطيع التعايش معك؟!
وما بين كل لحظة وأختها يضع الزمن عراقيله أمام منصات الفرح، ويجيد اختيار مطبات الثقة، ويشعل نيرانا لم تُطفىء بعد!

وحدي أقف هنا في هذا الحفل الذي سيتوجك أصدق النساء، وحدي أصرخ أن انزعوا هذه البراءة التي ترسمها على صفحات قلوبكم.
فأنا الوحيد الذي يعرف من أنت، ويعرف كيف تتقنين وجعا يخدر ضحاياكِ
أعرف هذه الابتسامة الناعمة وهذه النظرة الخائنة، أعرف جيدا أنك كاذبة!

من أين لك كل هذه الكذبات التي تشهرينها في وجه الحقيقة كسيل من كلمات يغرق واد من خداع، الآن أيقنت جيدا أن الدنيا تتسع لمثلك، وأن أصابع اليد الواحدة لا تتساوى كي تصفع كل من يحاول الاقتراب من تطاولها!
لكني لم أسأل نفسي للحظة واحدة لم لا أستطيع أن أكرهك وأنت بكل هذا السوء؟

في الضفة الأخرى من سذاجتي كنتي تعدين عدتك، تصطف كذباتك بمحاذاة بؤسي، تصرع نظراتك ما تبقى في قلبي من قسوة تجاهك، تعيق ميمنتي طيبتك

المصطنعة، فتهوى الميسرة والقلب عند أول مداعبة للواء شوقي إليكِ
فيتساقط الكبرياء، وتتساقط حصونا كنت أتحرك داخلها عكس عقارب العقل!

هكذا كنت أقتل جنودي بحماقة قائد لا يعرف سبيلا للخروج من مآزق الهوى،
يستطيع أن يتحمل طعنات الحرب ولكنه لا يقوى على ندبات الحب!
واحدة منها كانت تكفيني لأعيد الكرة من جديد وأهرول بعيدا عن ساحة معاداتك!

عندما أحببتك لم أكن أتخيل أنه سيأتي اليوم الذي أقف فيه عند حافة كرهك،
لم أكن ادري أنه من الممكن أن نحب ثم نكره، أو نحب من بعد كره
لم أكن أدري حقا أن المؤشر سيتحرك أقصى يسار الحب!

هذا القلم الذي كتب عنك ذات يوم، يكتب عليك
كان الحبر يحتضن بياض الصفحة عندما يكتب عن نقائك، واليوم هو ينفي خبثه فقط عندما يكتب عنك!

تسائلتِ ذات يوم متى أكتب فأخبرتك أنني أكتب عندما أكون حزينا
فالحزن هذا الفارس النبيل يضع يده في قلبك يسرق أسرارك، بينما يتصنع أنه صاحبك الوفي، يبتسم في وجهك ويربت على كتفك ولكنه يعتصر دموعك حتى آخر قطرة!
واليوم أنتِ لست هنا كي أجيبك عن سؤالك ولكن بصيغة أخرى..
أنني لم أعد اكتب إلا عندما أتذكرك!

ذاكرتي مثقلة بك كغيمة تحجرت مآقيها
لا تذيبها رياح الصبر ولا يعتصرها الألم

هذا الألم لا يشبه أحدا سواكِ، وهذه الطعنات لي وحدي ولا نهاية تلوح على مرمى البصر.

ما زلت تقفين عند ناصية وجعي، وأقف أنا في طابور طويل لا ينتهي ، تنتزعين مدية غدرك كي تغرسيها في صدري كلما مررت من جديد!

عند كل منعطف فقد جديد، وماذا يفعل عابر لم يعرف من طرقه سوى تعاريج الهزيمة!

هاوية:
Format my heart:/don’t copy any one

حِدادْ

مقعد، طاولة، كوب شاي، وجسد متعب كثيراً.

كل ما أريده الآن أن أرخي رأسي وأعود بالذاكرة للوراء ولو قليلاً، الرجوع ليس سهلا لهذا الحد، فكل الطعنات التي خلفتها وراء ظهرك ستشعر بها من جديد، وكل الوجوه التي نسيتها ستحفر ملامحها في صدرك وتقفز إلى ذاكرتك مرة أخرى.

أعلم أنها حماقة كبيرة ولكنها لذيذة على كل حال رغم مطبات تهدد بانقلاب هذه الرغبة على رصيف الذكريات!

أغمض عيني وأغوص في ذاكرتي رويدا رويدا..
أشعر أنني أمتلك ثقبا أسودا كبيرا يحتل أعلى رأسي، يزداد اتساعا كل يوم ويبدو أنه لم يبتلع أحدا غيري إلى الآن، أشعر أيضا أنني وحيد تماما عدا بعض علامات الاستفهام تتدلى من بعيد بخيبة كبيرة بجانب عبارات عجزت عن إيجاد حلولها بعد!

مئات من الجمل الاعتراضية، فواصل، نقاط كثيرة، وذكريات قديمة يجمعها نسيج عنكبوتي واحد!
ومن بعيد يقف طفل ذو عينين ملونتين، شعره غير مرتب، يحاول جاهدا أن

يشرح لأستاذه أنه أكل اللبن وشرب الخبز!!
وحوله أطفال يضحكون، بينما يفرك هو أصابعه في حيرة من أمره لم يضحكون كل هذا الضحك؟!

هذا الطفل كبر الآن وأصبح يمتلك مواهبا كثيرة كأن " يغوص في ذاكرته " ويعود للوراء
كان غضا طريا لا يصلح كي يحتطب أحدهم بمشاعره
عيبه الوحيد أنه كان يحلم كثيرا، فتلك هي البلاهة الوحيدة التي نرتكبها في الصغر
وعندما نكبر ندرك أن أحلامنا ليست سوى قنابلا موقوتة، معبأة ذاتيا بعمر إدراكنا!

يا ترى عندما نموت سيتذكر أحدهم أن هذا الجسد عندما جاوز طوله شاهد القبر بقليل كانت له أحلاما غير المكوث في التراب؟!
أم أننا نحتاج لحداد مسبق لكل الأحلام التي طويناها في صدورنا خشية أن يتلفها الموت؟!

مرت أحلام لم ندر أنه فات أوانها وأنها بعدت عنا بكثير.
في الضفة الأخرى حيث لا يُجدي زورقنا الضعيف
كنا نقف نستجدي البحر عساه يمنحنا حلما جديدا، ومع كل موجة كنا نرجع بحداد جديد.

حداد بعدد أرصفة الانتظار، ومحطات الوصول
وقطارات الفرحة التي مضت دون أن تغرقنا بسيل من القادمين.

من أين لي برأي غير مشوه عن الحب، بعد كل هذا الفقد؟!
إذا كان المرادف الأول للحلم هو الفشل، وللصداقة هو الغدر، وللحب هو الفقد والبعد
فنحن بحاجة لحداد أكبر، حداد يليق بخسارتنا وعمق المأساة.

مقعد، طاولة، وجسد متعب كثيراً كثيراً.

" الأشقياء في الدنيا كثير، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم
فلا أقل من أن اسكب بين أيديهم هذه العبرات ،علهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى "

المنفلوطي

إلى السيد/حزن، مع التحية!

إلى من يحجزون في قلوبنا تذاكر طويلة الأمد، لا يغيبون عنا
و إذا رحلوا..
عِلقوا على جدار القلب ولم يبرحونا
إليهم وحدهم دموع ليلة كاملة...

كأي آلة من آلات هذا الزمن المبرمج، أرتب فراشي بنفس الآلية المعهودة
أتفحص وجهي في المرآة بنفس الحركات الرتيبة ذات اليمين واليسار
هكذا كل صباح ، نسخة من الصباح الآخر ولكن بتاريخ جديد ووجع جديد!

أربع انحناءات جهة اليسار تلك التي تؤدي بي إلى عملي
ولا أدري لما لم تمهد لي الحكومة الطريق جهة اليمين!
هكذا مارست الاعتراض على هذا الوطن في كل كبيرة وصغيرة
ولكنه كالحزن ملتصق بنا منذ أن رأت أعيننا النور.

بكرم غير مسبوق لم أحاول التفاوض معه،هذا الجاثم على صدري منذ أكثر من عشرين خريفا
بل تركت له هذه المساحة التي يحتلها ليلهو بها كيفما يشاء، فليس هناك من يجيد العربدة في صدور الضعفاء مثله، وليس هناك بأقدر منه على نشب أظافرة ومحاولة تماشيها مع كل شريان ووريد.
إلى السيد /حزن مع التحية،،

أما آن لك أن ترحل عن هذا القلب ، فقد فاض عليك كرمه وطاب لك المقام سنوات طوال؟!

كنت صغيرا بما يكفي كي أدرك أن نهاية هذا الكون هناك حيث يمتد شريط القطار الحديدي للأبد!
واليوم أنا كبير بما يكفي كي أدرك أن نصيبي من الدنيا هذه الغرفة التي أتقاسم فيها وجعي مع الزمن، وأن هناك كواكب أخرى خارج الجدران يقطنها من يسمون بالبشر!

يكفيك بلاهة أن تنقاد خلفهم تردد:
"كم هو مالح طعم الدموع"
هل تذوقتها؟
هل سالت يوما واقتحمت أسوار شفتيك كي تلجمك؟
تلك طقوس الحزن يا عزيزي
لا همس ولا صوت سوى أنينك.

أيها المسلوق فوق صفيح ألسنتهم
يا من تعاني من برودتهم
هل فكرت مثلي يوما
أن تستيقظ قبلهم، وتسلبهم هذه الشمس؟
تضعها في جيبك حتى لا يهنئوا بدفئها!

لا أخشى على الذين أحبهم
أكثر من أن أهدي إليهم هذا القلب فيشقون به.

إنها لا تعمى الأبصار..

أعمى مذ جاء لهذه الدنيا ، لم يعرف غير الأسود
سمع مرارا عن حمرة الورد وزرقة السماء وبياض الثلج
إلا أنه لم يذق غير الأسود بكآبته، وطول بقائه كليلة تأبى الرحيل

يمسك بعصاه، رفيقة دربه
وصاحبه الوفي
يهش بها علينا، يسخر منا
يسمع دبيب أقدامنا
فهذه قدم مغرورة وتلك مشية أحمد
وهذا وقع أقدام زوار الليل
وهذه الناعمة هناك، لصبية في مقتبل العمر

يحفظ أشجار الحي ، وأصوات الجيران
يصغى لنبض قلبي، وكأنه دوي قنابل
يبسم لي من بعد، يعرفني، يحفظني
تتسارع خطواتي كي أهرب منه
يبتسم وكأنه يقول:
تحسبني أعمى يا أحمق..؟!

يلامس جبهات القوم...
يميز ببراعة أينا أرهقه الحزن ومن فينا قد مات من البهجة!
يتحدب ، يصبح جسرا كي نعبر عليه
لنرى بمقلتيه، مالا عين رأت، ولا خطر على قلب مبصر.
أعمى يصف الشمس، ولم يعرف غير حرارتها
يشاطر وجهه القمر صفاء
يبسم تتهلل للكون أساريره
يحكى فيسود الصمت الدار
أعمى يحفظ قرآناً
ومبصر صاحب شيطاناً
شتان بين أعمى ومبصر يا قوم!

قفصٌ وجناح ▪

حتى الشهادة يساومونكم عليها...

ماذا تفيد الأجنحة إن رسموا لك حدودا
وقالوا لك أيها الطائر: غرد بعيدا عن هنا؟

لم يكن الوطن يوما رجلا ممشوق القامة يتجول بين الناس بسوطٍ يصافح ظهورهم
ولم تكن الظهور بمثل هذا الترحاب من قبل
ولم يكن هذا البخيل الذي يملأ جيوبه بالفضة ويدخر الحديد للقيد!

هل يمكن أن نسمي هذا البالون الذي وضعونا فيه حتى أوشك أن ينفجر وطنا؟!
بمعادلة يعجز إبليس عن حلها اختزلونا في شخص واحد
صنعوا من قبضته سجناً كبيراً
ومن فمه مذياعاً أكبر
ومنا آذاناً تسمع.

هذا هو الوطن!
حفنة من تراب ، وأغنية وهرم!
أغانينا ثغاء، أحاديثنا رغاء..
حقا.. حقا ..غنم!
وإذا هرب الراعي جف المرعى وحتما تموت الغنم!

لماذا انسلخت من القطيع يا صاحبي؟
هل ضاقت فروتك لهذا الحد؟
ألم تعدني يومها أن تعبر إلى الشاطيء الآخر دون أن تبلل نفسك
وأقسمت لي أنك لن تبلل حتى قدميك
لماذا غصت كلك حتى القاع؟
لماذا تحنث في قسمك لهذا الحد؟!
هل كان علي أن أكذب على صغيرتك وأنا أعطيها هدية منك؟
هل كان علي أن أقدم لها النصح أن تبقى في هذه الديار المسماة زوراً"وطن" ؟

كعادتي سأدعي البراءة حد النبوة
وأخبركم أن لا كرامة لنبي هنا
أحاول عبثا أن أهرب من الـ"هنا"

ولكن..
من ينشد من البحر عسلا استحق أن يغرق فيه!
ما زلت بحاجة أن ابتعد ولو قليلا
حتى أرى "هنا" بشكل صحيح!

لأنهم لم يضعوا الشمس في جيوبهم حتى الآن
ولم يسلبوا منا قناديل السماء
سأعود يا سمراء، أجاوز هذي التلال
أثبت مقلتيّ كي تحرس نيلك وسهولك
أعزف بأوتارك لحنا من نور
وأنشودة تحكي للبرايا عن عشاقك.
.

وتبقى خطوط الطول ودوائر العرض
سجناً آخر....
لمن أدرك لعنة القفص!

واحد صِفر!

هذا أنا..

منذ وقفت بجانب البحر
وشعرت أن اليابسة مجرد جزيرة صغيرة في هذا الشاسع
منذ ذلك الحين وأنا اشعر أنني صِفر هذه المنظومة!

يتدلى أسفل قائمة الأرقام
يشكل خيباته باقتدار
من يأبه له نقطة كان أم دائرة؟!

من كتفه كانت أرقام تولد
تتسلل بجانبه خلسة كي تعلو
يهرم كل الناس من حوله
وهو مازال شقيا بصغره، يُضرب يصبح صفرا
أو يُنقص منه فيرحل كل الأحباب!

يشعل سيجارته...
يطفئها في قلبه كي يشعل أخرى
لم يتساءل أحد كيف لهذا الصغير أن يبتلع كل هذا الدخان
فقد ظل يتعلل دائما بأنه يكوي مكان الجرح!

إمعانا في شدة الوجع، صنعوا له توائما كثيرة
مؤلم أن تعيش وكل هذه الأصفار من حولك، وهناك من يصنع ثروته بآلامك!

صغير يتوسد رقعة كبيرة
يبكي ويضحك حتى الموت
صفر عربي الطابَع
لكنه يشعر دوما بالوحدة!

هرب ذات وهم من ذل الأصفار
كان سخيفا بما يكفي ليستلقي على ظهره
كي يتحدث مع أقرب جار !

من يدري؟!
فقد ظل يناجي البحر:
قليل من الملح يكفي
حتى تآكل من قدميه!

في معركة الأرقام صفر
صفر في معركة الحب
صفر يتنفس بصعوبة
ويزفر جل الأوقات
نقطة تنحدر وتتدحرج كثيرا
كي تكمل مشوار الحياة!

الماء يفتت الصخر ويقطع ألسنة النيران
من ضعفٍ تحدث معجزة كبرى
لم يكن يدري قبلها كيف يتحرك إلى يسار الأرقام !

ما تمنيت شيئا إلا وفقدته!
منذ ذلك الحين وأنا أقف على ناصية الصفر
أتلصص أخبار الأحلام!

دفتر أبيض

كنا صغارا..
مازلت أتذكر عن تلك الكلمة ملامحا
كظاهر العمر فى قسمات الوجه
أعصر رأسي
كى أتذكر تلك الحلقة الملقاة فى فلاة العمر
نعم أتذكرني هناك
أرسم الوجه دائرة
تتوسطها نقطتان
القلب أبيض بلون الصفحة
والجسم ممدود كمارد ود لو طال
كى يلحق بركب الكبار!
تلك قوانين الصغار

كبرنا..
لم يتغير شيء
سوى أن المارد قد طال...
والدائرة نبت لها شارب.
والقلب أضحى كسواد الليل الذي طال!

لم نكن نعرف أن المربع له من الأضلاع أربعة
بل خمسه أو ستة أو حلقة
تستوعب كل الأيادي المتشابكة

وإن شئت سميها القلوب المتشابكة...
واليوم لا أدرى لما ضاقت المربعات
واستحالت فسيفساء
والحلقة أضحت مشنقة
لمن نادى: هلموا عباد الله!

كنا نركض بلا خوف من فرعون وجنده خلفنا..
وإن صادفنا اليم
فعصا موسى قابلة لفلق البحر
بل حتى للطيران!

درسنا فى التاريخ أن للعزة دولة
من المحيط إلى الخليج..
قد سبحت باسم ربها الأعلى.
وحتى كبرنا علمنا من سبح باسم بيتها الأبيض..
ومن لعق حذاء السلطان..
ومن قدم القدس قربانا على طبق الضلال.

كنا نضحك من (الخازوق) الحلبي
ومن والى عكا الخائن..
مازلت أذكرها ببراءتها:
"والى عكا
راجل سكه
باع إسلامه
بحبة فكه"
أما الآن فلا تنطق ولا تتحرك

كى لا ينفذ من رأسك خازوق عربي أصيل!
والكل أضحى ذاك الوالي الخسيس.
كنا صغارا نخبيء أعيننا من الخوف
نكره الضرب على ظهر اليد
فكيف تعلمنا طعن الظهر .
وهذي الخصال...

ما زلت أذكره يوشى بنا للمدرس
كان يحب أن يقوم بدور الخائن
واليوم أراه يحمل أطنانا من الموز
فى بلد كل من فيها يعبد القرد..
لم يتغير صديقي
بل كلما تغير إله
تضرع وحسن شركه.
فوشاة الصغر..أول من يخون فى الكبر.

أما المقرب إلى قلبي
أذكره يوم تقاسمنا الطعام
ويوم حلمنا بأعين سبحان المعبود
سافر صديقي..
لكن البحر الذى حمل أساطيلهم وبوارجهم
لتدك علينا بيوتنا
لم يحمل حلمه البسيط..
لم يحمل طعام الصغار
تبدلت قوانين الطفو
وسبحت ضد التيار

وها هو جسده وقلبي
يسكنان هناك
في
قاع
البحر
فباليتنا بقينا صغار!

قال الراوي..
عن زمن الحجاج أيضاً..

في هذا الزمن المعوج...
لا ندري من ألقى قشرة الموز ولماذا أضحت الدنيا تفاحة واحدة يقضمها الجميع من كل جانب، حتى إذا انتهت التهموا بعضهم البعض.

في هذا الزمن الكاذب...
ستناضل من أجل قضية؛ تموت وحدك في منتصف الميدان؛ يتاجرون بصورتك على صفحات الجرائد؛ نصفهم يقول أنك إرهابي بامتياز والنصف الآخر يرى أنك معجزة لم تحدث لنبي.

في هذا الزمن المنكسر...
كيف لك أن تكون عكازا ودليلا في ليل لا يعرف للنجوم مقام
في هذا الزمن ما الفرق بين من يمشي للوراء، وذلك المعلق من قدميه وهؤلاء الذين يهيمون على وجوههم.

في هذا الزمن الخائن...
يمتلك الجميع ذرائع كثيرة كي تكون وفيا لهم وتضحي لآخر قطرة من دمك، دون أن يفعلوا لك أي شيء.

في هذا الزمن...
تحتاج الموازين ميزانا أدق، الحضارة تحتاج لمتحضرين، والرجولة تحتاج لأشياء أخرى غير الفحولة وتفتيل الشوارب، أيضا العقول ينقصها عقول والحياء ينقصه الحياء والقوة ينقصها سلطان العدل.

في هذا الزمن البشع...
يموت الراوي مرتين، مرة حين يرى ومرة حين يروي!

في هذا الزمن القاسي تموت كما الدمية، فلا تبكيك العرائس
مثلما يموت المهرج دون أن يدري الجمهور
فيضحكون!

طريق يُنقص من أطرافه!

في الغربة حكايات كثيرة...

وحدي لفظتني الديار وألقت بي على قارعة الغربة..
مجرد من كل شيء عدا أنا وحقيبة حملت فيها الماضي على ظهري وبعض الوجوه الشاردة في لحظة وداع.

مؤلمة هي لحظات الرحيل تستنسخ حزنها آلاف المرات لتوزعه بالمجان على الحضور وتعلق ما بقي منه كتميمة سوداء في قلبي.

ودعت أحلامي وأوهامي وبعض من قصائدي
وأهديت دفاتري لباعة الورق
أنا يوسف إذ رحل وأنا من ابيضت عيناه من الحزن
أنا فارس ألقى بسيفه مذعورا..
وتاه في الأرض بحثا عن وطن
أنا مجروح ضمد جرحا بجرح..
ونزع من جسده ليطعم الوهن
أنا ..
من أنا يا أنا.؟
سؤال ينتظر الكفن.

تلقي بنا الأيام بلا اكتراث كشجرة تخلت عن أوراقها في مهب الريح
لا يهمها أين سقطنا وأي الطرق ستمتص صدماتنا..
لا يعلم نيوتن أن من يسقطون الآن من أبناء جنسه
وأنهم ينتمون للطريق أكثر مما ينتمون لأوطانهم..
ذهب نصفي في الطريق..وتآكلت من قدمي!..
لم يبق مني شيء لأطعم طريق العودة..
فلا أعلم هل تسلكنا الطرق أم نحن من نسلكها؟!
وهل نسير فيها أم تتمدد هي بداخلنا؟
وهل نكسر إشاراتها أم تكسر هي عودنا...؟

في الغربة..
كل الطرق تؤدي إلى العثرة!
هذا الطريق يشبه الدجال ..
فجنته نار وفراق..
وناره ليست الفردوس الأعلى من الدنيا.
وذاك الطريق لا يقطع تذاكر العودة
وآخر يلقي بك بعدما يفرغ جيوبك
تختلف الطرق في وجعها إلا أنها تتفق في تآمرها مع قدمك عليك.

طريق العودة يشبه سنين العمر التي انقضت لا تفلح معه العودة للوراء..
ولا يصبغ ليلة من شابوا وهم يلاحقون خطاهم
فما أفسده الطريق لن تصلحه مؤامرات الاستقرار
ومن اعتاد الرصيف فلن يغريه نوم الأسرة..
ومن توسد الرحيل..
لن يقبر حيث صرخته الأولى!..

غياب

...وغريب شق معطفه
أخذ قلبه وملامح وجهه
تدفأ قليلا
نفث من سيجارته
وظل يوسوس له أنهما واحدا

كان يعد النجوم فوق رأسه
حتى تطاول البنيان من حوله
كان يعد خطواته لبيت حبيبته
حتى تزوجت هي الأخرى
كان دقيقا ويعد كل شيء!

يشاكسه ويصدق الآخر:
أنت تمزح..
علم بلدنا عليه ببّغاء؟!

ستعود..
لحبيبة لا تنتظر رجوعك بفارغ الصبر
لأهل بكوا عليك حتى جفت مدامعهم
لأصدقاء احتسبوك في عداد الموتى
لوطن يهبك اسمه فقط
وأب ما عاد يذكر ملامح ابنه
لسقط متاع وأنياب وحشة

كنتِ على حق يا أمي
أبي يشبهني كثيرا

سيبكون عليكِ يوما أو اثنين
ويشقون عليكِ أثوابهم البالية
وينصرفون لدنياهم بدونك
إلا أنا لن أنساكِ يا نورا

البرد يعصف بعظامي يا أمي
والطريق جليد
خبري النسوة اللاتي استغربن غيابي:
أبي قطع من كفه خبرة
ولم يقطع من جيبه شيء

مازال يقول ساخرا:
أنتم تحجزون بقلبي مساحة حذاء !

أصدقاء المقهى كما هم
الشيب يهزأ برءوسنا
وصورتك مازالت في جيبي.

زوجك كريم وشهم
كنت أظنه سيبارك حبنا !

يقول لي أنت قلبك مليء بالظلام
وقلبي لو تعلمون مسكن للأحزان
به من النور ما يكفي ليظل نابضا
به شجرة وارفة، وكتّاب وشيخ.

من سيشيع جنازة الروح؟
هل نستأجر بواكينا..
ونقتطع لهم من أكفاننا مناديل الوداع
أم نبكي على أنفسنا حتى الموت.

بكيت كل غائب، لكني وجدت الله حاضرا

سأعدّ من واحد لألف!
ربما..!

متقن هذا الصمت، سادي هذا الحزن
يا برد المسافات بيننا..
مخنوقة كلمات الحب التي لم نقلها
مشوه بالبعد كل شيء...

وأنت كما أنتِ
توزعين الحزن بالمجان
وتمنحينهم بطاقات العزاء.

تسألين دائما: لماذا أحبك؟
وأنا لا أعلم كيف يحب الرضيع أمه
وكيف تهتدي إليه من بين الزحام.

ويأتي رمضان..
أنا الذي تعودت صيامه منذ السابعة
كيف لي أن أصوم يوما واحدا عنكِ.

تراهم كانوا يغارون من ضفائرك يا نورا؟
أعين النساء ما زالت ترمق شباكك
وقلبي هناك، بارد في العراء.

يقول بصبيانية:
كلما أحببتك أحبكِ
وكلما أحبكِ أحبك أكثر وأكثر!

يا حبيبتي، حزني أضعاف..
تزوجت هذا الرجل..؟
الذي يصعد فوق السطح
ويبث من رأسه رسائلَ للغرباء!

ويلوح وجهك من بعيد
يهمس في أذنك وتضحكين:
هذه الليلة لن نطفيء النور.

غضب يتلوه سكينة
حروف تقسو عليكِ برهة فتبدو بلهاء
فخلف كل حرف منها رجل مكتمل الشوق
يتجاوز حبه الأبجدية وحماقات الأدباء.

وأنا منذ رحلتِ..ساقية معطوبة
وأنا منذ غيابك طريق مهجور.

يفضحني وجهي كلما ذكر اسمك
يرتبك الوقت، وتدوخ عقارب الساعات

وتسجل الأيام والشوق في دفاتري..
هذه المرأة كالقطرة
تستقر في أحشاء النار المضرمة
ولا يخبو دونها أي شوق
هذه المرأة تذكرك بك حينما تكون ضعيفا!

يصدح المذياع: إني رأيتكما
فيذوب قلبي لوعة ويموت.

ما زال العاشق يترنم:
لي عيون أرى بها جيدا
لكنها عن غيرك عمياء لا يرتجى شفائها.

يعجبكِ...؟
هل يبكي مثلي إن قسوتِ عليه؟

يقولون لماذا لا تنساها؟
وكلما حدثوني عن نسيانك
لفظت أحاديثهم، وامتلئت بك كثيرا.

ومازلت أضع دفتري تحت وسادتي
كي أكتب عنكِ قبيل أن أنام.

قال المتحذلق:
ستعد من واحد لألف، ثم تنساها.
قال أبي:
ولدي لا يعرف الضعف.
ويرد صديقي:
قلبه يبكي العصافير.

تقول أمي سحرتك هذه الملعونة
ويتمتم الشيخ:
كل ما يهمس به، لا يتعدى أسوار الهذيان.

أشعلت سؤالا في المحراب..
يا الله..
هب لي قلما، لا يكتب عن الحزن بعد الآن.

إلى نورا، مع كثير من وفاء

من أول السطر ميلاد جديد يبدأ بجرة قلم وينتهي بشهقة نقطة أو يكمل المسير بزفير فكرة..

الحياة قصة قصيرة
والرواية ساعة في طابور الخبز!
والفواصل منحنيات فكرية وأزقة خلفية في سراديب العقل
والجمل الاعتراضية -أحاديث جانبية-
والحروف عرائس جميلة بأزياء مختلفة
والصفحات ثرثرة جميلة
والقلم متبرع جيد بأحباره لا ينكسر عنقه كلما حاولنا خنقه
والورق أفضل مكان نترك فيه بعض منا بلا خوف من أقدام غاشمة أو أياديِ عابثة.

يتجلى وفائه إذا احترق ليواري أسرارنا، وتسامحه عندما نلوث بياضه فيزيد رصيدنا من الحروف
جندي وفي في حضوره،وجيش منظم في سطوره.

والفكرة مولود يولد ماشيا ، توزع قنابلها الموقوتة في أرجاء العقول،وتزرع ألغامها على أرض الواقع.
وخير الأفكار ما كانت ولادتها عسيرة!
والكاتب كبائع البيكيا يأخذ من الواقع أسوأ ما فيه ليصنع منه أردية جديدة فيلبسه زي الربيع،

ثم يعصف بما سبق فيخرج للقاريء المواد الأولية التي استخدمها كي يهشم رأسه بفكرة جديدة!

(نقطة)

الكتابة ردة فعل لابد أن تتساوى في المقدار ولا تتساوى في الاتجاه
من الأجمل لها أن تسلك الطرق العكسية ، وتكسر الإشارات الحمراء، وتهمس بسخرية في أذن ضابط المرور
ومن ليس لديه أحرف تعلن العصيان المدني، فلسنا بحاجة لمزيد من خيالات المآته التي تدلل على أن أرضنا مليئة بالكتاب
ولهذا قررت أن تبدأ السطور هذه المرة(بنقطة) ولا تنتهي بشيء كناية عن عصيان لغوي وحب شديد لهذه النقاط التي تزين لغتنا كقناديل نور نهتدي بها متى نقف وكيف نفرق بين الحروف.

الكاتب الصادق كصائد الفراشات الملونة، يجعلنا نلمسها دون أن نؤذيها، يفتح لنا نافذة للقمر، يبكينا ويضحكنا بين جملتين وفاصلة.
والكاذب يشبه من يتغزل بعجوز شمطاء يسهر لها طوال الليل، يكتب لعينيها ملايين القصائد
يخدعنا بأنها صبية تتنكر في زي كبير، بينما يقلب ملك الموت في أوراقه لحين مجيء أجلها!

الصادق يرى في المرأة عطائها ،والكاذب لم يعرف من المرأة سوى جسدها.

(أقلام زائفة)

هل ترى..؟
هي أشياء تشترى
وتباع..
وتدخل مارثون لا ينتهي للنفاق!

نستطيع أن نكتب عن ألف قضية
لكن قضية واحدة هي التي تصل إلى قلوب الناس
تلك التي نجعل من قلوبنا محبرة لها
ونفترش الأرض كي نناقشها معهم

يقول الأطباء-حملة الشهادات الرسمية للشعوذة-:
أن الجنين موصول بأمه عن طريق الحبل السري، إذا زاد طول هذا الحبل أو قصر عن حده لن يصل الغذاء للمولود.
وهكذا أحسب العلاقة بين الكاتب والقاريء
فلا ينبغي للكاتب أن يبتعد عن الناس ومشاكلهم فيكتب عن عالم لا يخص أحد
وألا يقترب منهم فيزيل الستار الأسطوري الذي يرسمونه له في عقولهم!

...وما زالت مسبحتي وسجادة الصلاة الـ(made in china) تخبرني عقب كل صلاة أن عبادتي ناقصة!
وما زلت في شك من أمري، كيف لقلمي الذي يفتخر بصناعته الألمانية أن ينطق بلسان عربي مبين؟ !

ذاكرة مهترئة

ذاكرة الورق ضعيفة وكذلك ذاكرة القراء..

يقولون بأن الحزن تنسيه الأيام، وأنت مازلت تخفي همك خلف عقارب الوقت ودقات الساعة تشير إلى ازدياد همك ، والثواني ثمالة في قاع حزنك.
أخبرتك يا صاحبي أن ما بين الصدق والكذب مقدار إلتفاتة!
لماذا أصررت على بياضك في زمن الألوان القاتمة؟
ولماذا تسمرت مكانك في زمن الهروب؟

هل أغروك مثلي بتاريخ مليء بالانتصارات، ومساحة من الوطن أكبر من مقاس حذائك؟!
التاريخ مخمور يا صاحبي، والرواة كأسه التي لا تنضب فلا تصدقهم!

أوطاننا حبلى بالسواد!
ورحم يقذفنا بملل ، فاخلوا للأوطان الطريق حتى لا تتعثر بأحلامنا البسيطة!
لا يُقاوم الرصاص بالصدور يا صاحبي كما زعموا من قبل، وهزائمنا منسوخة على جباهنا!
فلا تبعثر آخر أيامك، واهرب بكل ما أوتيت من قوة ومارس الركض جبنا فأشباحهم خلفك يا صديقي!

لا تلتفت..
فرعون هذه المرة أقوى، وهامان معتقل كبير على مقاسك!
وبحر الظلم أعمق من عينيك الغائرتين، وعصا موسى لا تفلق سوى رؤوسنا.

كنت مثلك يا صاحبي أتأبط الوطن جريدة تحت ذراعي
وبالأخرى أرسم أحلام البسطاء وأدخن همومهم
حتى اختنقت وصرت سطرا في جريدة
وحين أعلن الصمت لغة البلاد الرسمية
كان لي صمت من نوع آخر
لا يصدر منه إلا صرير على ورق
حتى وشى بي الأخير عند أعينهم!

وفي التاسعة والنصف حين تركع الساعات كرأسك!
أبوا إلا أن يتموا عبادة القتل وتراتيل الدم.
وبكاتم للصوت وأدت أحلامي وجُردت منها في أقرب نقطة تفتيش..
لينفخ قاتلي بنشوة المنتصر فوهة مسدسه ويدسه في جيبه استعدادا لقلم جديد!

"فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال"

[الرعد : ١٧]

الكاتب:
محمد ماهر العرفي
مواليد المنصورة ١٩٨٥
al3arafy@hotmail.com

فهرس المحتويات

حديث جانبي..... ٩
بلاد ما وراء الهمس..... ١٣
بين قوسي الحزن وفاصلة الغباء..... ١٦
تاريخ ملون..... ١٩
أحذية الفقراء..... ٢٢
في حينا مخبر..... ٢٦
حالة حمار..... ٢٨
ثرثرة على جدار الليل..... ٣٢
حدث في مثل هذا النوم..... ٣٥
من بعيد: قلوب متقاعدة..... ٣٧
تباريح..... ٤٠
كيف تصبح قردا..... ٥٤
انطلاق للخلف..... ٥٧
الأبيض يبقى وحيدا..... ٦٠
أقصى يسار الحب..... ٦٣
حداد..... ٦٦
إلى السيد حزن، مع التحية..... ٧٠
إنها لا تعمى الأبصار..... ٧٢
قفص وجناح..... ٧٤
واحد صفر..... ٧٧
دفتر أبيض..... ٨٠

قال الراوي..... ٨٤
طريق يُنقص من أطرافه..... ٨٦
غياب..... ٨٨
سأعد من واحد لألف..... ٩١
حبر وورق..... ٩٥
ذاكرة مهترئة..... ٩٩